قهوة وقطعة حلوى

قهوة وقطعة حلوى
قصص
نيللي على
الطبعة الأولى :٢٠١٥

دار الحلم للنشر والتوزيع
٤ شارع الأشراف - من شارع مؤسسة الزكاة - المرج - القاهرة
موبايل : ٠١١٤١٨٢٤٥٦٢
dar_el7elm@hotmail.com
المدير العام : د.إسلام فتحى

إخراج داخلي : الحلم للدعاية والإعلان

رقم الإيداع : ٢٠١٤/١٠٩٧٨
رقم الترقيم الدولي : 978-977-6412-71-2

إن دار الحلم للنشر والتوزيع، غير مسؤولة عن آراء المؤلف وأفكاره، وتعبر الآراء الواردة في هذا الكتاب عن آراء المؤلف، ولا تعبر بالضرورة عن آراء الدار .

نيللي على

قهوة
وقطعة حلوى

الفهرس

١١ معطف
٢٥ قهوة وقطعة حلوى
٣٣ الفستان الأبيض
٤٣ الخاتم
٥٣ زلابية وبطاطس
٦١ غزل البنات
٦٧ طعم البيوت
٧٧ ريحان
٨٧ السفينة
٩٥ شاي وسيجارة
١٠١ ٥٠ قرش
١٠٥ الحصان المكسور
١١١ علامة النصر
١١٧ البيانو
١٢٩ مربى وزبد
١٣٥ قطعة دومينو
١٣٩ خارج الكادر

إهداء

الله

الفضل لله سبحانه وتعالى لأنه منحني تلك الموهبة

لتكون الواحة التي استريح فيها من قسوة الحياة

لتصبح بعد ذلك منبري الذي أطل منه على العالم لأكتب عنه وله..!

ليلى

أمي

دفء قلبها حماني من برد الحياة....!

ومنحتني عيوناً عسليةً بلون عيونها....!

فالشمس تشعر بالبرد أمام دفئها....!

و القمر يغار من جمالها....!

فأنا لا شيء بدونها

لأنها هي كل شيء....!

تامر

زوجي

لقد أحييت الكتابة بداخلي

بعد أن دفنت لسنواتٍ طويلةٍ في تربة قلبي

وستظل دائمًا يدك تمسك بيدي لتعلمني ما أجهله ..

وتكمل ما ينقصني
فأنا لن أكتمل إلا بك.

الأديب يوسف إدريس
أبي الروحي
في مدينة قلوب الناس علمني كيف أسكن ..
كيف أكتب عنهم..
عن
أفرحهم وأحزنهم ، معاناتهم و أحلامهم ..
علمني كيف أكون إنسانة صادقة
لأنه إنسان صادق وأديب عظيم.

الكاتب محمد توفيق
معلمي
آخر النفق يولد النور
فأنت النور معلمي....!

دينا ممدوح
صديقتي
مؤلفة كتاب قصاصات أنثوية
ستظل ابتسامتك مفتاح روحي، افتح ببريقها أبواب الأمل..!

على
أبي
أشكرك لأنك منحتني اسمك الذي زين كتابي..!

أشكر كل إنسان دعمني
فبكم استنشقت حروفي رائحة الحبر وعانقت كلماتي الورق الأصفر
ورأى كتابي
قهوة وقطعة حلوى
نور الدنيا بعد أن كان حبيسًا في أنفاق قلبي..!

وأخيرًا
أشكر كل من طعني في قلبي وفي ظهري..!
فطعناتكم هي وقود كلماتي
فبكم ولد هذا الكتاب..!

الحمد لله رب العالمين

المقدمة

حان الوقت
لتعبر إلى الرصيف الآخر
وتأخذ مني قهوة وقطعة حلوى
وتذهب إلى البيت
وتستمع إلى موسيقى هادئة
يحبها قلبك كثيرًا..!

نيللي على

معطف

مع دقات الساعة السادسة مساءً وأمطار الشتاء تطفئ ضجيج الطرقات، صعدت بحذائها الوردي على السلالم الخشبية لكي تعلق الزينة الورقية الملونة، فلقد أنهكها البحث عنها اليوم ولم تجدها إلا في دكان صغير في أحد شوارع وسط البلد، فهي تحب تلك الزينة ولا تحب الزينة المصنوعة من الورق اللامع لأنها تستنشق فيها عبير جدتها، فلقد كانت تعلق لها الزينة الورقية الملونة فتجعل البيت أكثر إشراقًا...!

كانت ترفض جدتها أن يشتري لها أحد «كعكة عيد الميلاد» وتصر أن تعد كل شيء بيديها، فتخبز الكعكة وتنقش عليها اسمها وعمرها، ودائمًا كانت تقول لها بصوتها الحنون الهادئ أنها يجب ألا تخجل من عمرها مهما كبرت، فكلما تقدم بها العمر نضجت أكثر وأصبحت أكثر جمالًا حتى وإن هرمت، فالجمال لا يقاس بعمر الإنسان، ولكن بعمر روحه، وهو الذي يجعل وجهه أكثر نضارةً أو ذبولًا.

وقبل عيد ميلادها بأسبوع، تسمع صخب ماكينة الخياطة السوداء كصخب القطار لا تتوقف ليلًا أو نهارًا، لتحيك لها فستانًا يشبه فساتين الأميرات في أفلام الكرتون، وعلى الرغم من ضعف بصرها فإنها حينما تحيك لحفيدتها تشعر بأن نظرها قد استعاد حدته ولا تشعر بإرهاق في عينيها، فقوة حبها لها تعطيها القوة في كل شيء ينقصها في جسدها وتكتمل بحفيدتها حياتها..!

ومنذ سنتين تُوفيت جدتها ولم يصبح أحد يعد لها عيد ميلادها، وأصبحت هي من تعد كل شيئًا بيديها ولكن بروح جدتها; فتخبز الكعك والمخبوزات بنفس المقادير وتحيك فستانها على نفس غرار فساتينها القديمة، حتى الزينة على الرغم من أنها تجدها بصعوبة فإنها لا تيأس وتصر على أن تجدها.

نزلت بخطوات هادئة على السلم الخشبي بعد أن انتهت، ثم أحضرت المزهرية وملأتها لنصفها بالماء ووضعت فيها الزهور، ووقفت بعيدًا لكي ترى شكل البيت فشعرت بأن حضن جدتها يضمها، وأسارير الفرحة زينت وجهها، وظلت تدور بفستانها الوردي إلى أن ارتطمت بوالدتها وكادت

تسقط فأمسكت بها:

- ماذا بكِ يا ابنتي؟ هل أصابكِ المس؟
- لا يا أمي، سعيدة لأني أشعر بروح جدتي في المكان....!
- رحمها الله

تجهمت الأم فهي لم تحب يومًا والدة زوجها لأنه كان يهتم بها كثيرًا، وكانت تنشب الحرائق بينهما إذا نام بجوار والدته حينما تنهكه الحياة ويريد أن يشعر بالراحة والدفء في حضنها، فهرعت إلى المطبخ لكي تهرب من أحاديث ابنتها عن ذكرياتها مع جدتها.

بدأت رائحة الفانيليا تنبعث من الفرن وتزور روحها، وقطرات المطر تنقر كنقرات أصابع الأطفال على النافذة، فأسرعت إلى الشرفة لكي تستنشق رائحة المطر، فمزيج هذا العطر يخفف من أعباء قلبها وثقل صدرها فلقد أنهكها الفراق، فمنذ أن تخرجت وصديقاتها يسقطن واحدة تلو الأخرى في بئر الحياة، وكلما حاولت أن تدلي لهن دلو قلبها لكي يعدن مرة أخرى، يتهمنها بأنها مفرطة الإحساس ولم يفهمن يومًا أنها تحبهن وتريد الاحتفاظ بهن لآخر نفس فيها، فمنهن من تزوجت ومن انشغلت بحياة أطفالها ومنهن من ارتبطت، ولا تعرف لماذا الذين يرتبطون يفارقون أصدقاءهم..؟! فالقلب مركز كون الحب; وفي هذا الكون حب يخص كل إنسان ودفء لا يأخذه غيره، ورغم هذا فمعظم البنات تحصر الحب كله وتخصه لخطيبها أو زوجها ملقية بسنوات الصداقة وراء ظهرها، وكأن هذه السنوات مجرد كتب دراسية قديمة يجب التخلص منها لأنها انتهت فترة الدراسة بها.

ظلت تلمس بيديها الصغيرتين سور الشرفة لكي تبللهما بماء المطر فهي تحب أن تشعر بملمس الأشياء، فتحب أن تسير حافية القدمين لكي تشعر بملمس الأرض فهي تكن مشاعر لكل شيء في الحياة أحياء إن كانوا أو جمادات، فمشاعرها كغزل البنات رقيقة، فبمجرد أن تقترب منها تشعر بمذاقها المعسول، ومع أقل كلمة تحزن وتبكي، ومع الأوجاع تنهار، وتظل شهورًا

تحاول أن تبني روحها من جديد.!

اشتدت الأمطار..! فأغلقت الستائر وأخرجت رأسها الصغير كالعصفور تراقب المارة في الشارع وتدبدب كالأطفال لكي تعبث في مياه الأمطار التي ملأت أرضية الشرفة، وترسل عيونها لآخر الشارع لكي تتطلع إلى أصدقائها; فتعود لها لكي تخبرها أنهم مجموعة من الغرباء لا تعرفهم ولم ترَ أحدًا من أصدقائها، شعرت بالبرد يدغدغ جسدها النحيل; فدخلت لكي تدفئ قليلًا وتساعد أمها في وضع الأطباق والفناجين الصيني، وأمها تنظر إليها بعينين كالصقر وتلكزها:

- ماذا سوف يحدث إذا وضعنا أكواب وأطباق وملاعق بلاستيكية، لنتجنب غسل كل هذه الأطباق والملاعق..!

- أنا أفعل كما كانت تفعل جدتي، فالصيني له سحره ويضفي على المائدة روح الفخامة، وما أجمل أن تصبين الشاي من البراد وتسمعين أزيره في الفناجين، وحينما ترتشفين أول رشفة تشعرين بأنكِ أميرة في قصرك، أما الأشياء البلاستيكية فهي بلا روح، وتشعرين أنكِ تأكلين من إحدى عربات الطعام بالطريق..!

- يا فيلسوفة عصرك وأوانـك..إذن أنتِ سوف تغسلينها بعد أن يذهب أصدقاؤك، أين هم؟ لماذا تأخروا هكذا؟ الساعة الآن السابعة..!

- قد تكون الطرقات مزدحمة، سوف أذهب لأتصل بهم.

دخلت حجرتها والخوف يرقص أمامها ويسخر منها ويقول لها ما تخشى أن تسمعه:

- لن يأتوا من أجل الأمطار، أنتِ لست غالية عندهم لدرجة أنهم يرتدون المعاطف، ويمسكون الشماسي لكي يصدون عن أنفسهم البرد والأمطار..!

جلست على سريرها ترتجف، فروحها لن تستطيع أن تتحمل فكرة أنهم قد لا يأتون، فلقد انتظرت هذا اليوم بفارغ الصبر، فهي لم تراهم منذ فترة كبيرة،

ويمر يوم وراء يوم، والبعد يطول.. والشوق ينضب من القلب ..والدفء يتحول إلى برد.

ارتدت معطفها الأزرق لعله يحتضنها ويطمئنها قليلًا، وقفت في النافذة تناديهم بقلبها وتتوسل إليهم ألا يخذلونها هذه المرة، وأخذت تراقب المارة; فالمارة لا يلفتون أنظارنا إلا في أصعب لحظات حياتنا، خصوصًا حينما ننتظر وما أصعب أن تنتظر شيئاً قد يأتي ويفرحك وقد لا يأتي فيوجعك، والمصيبة في الوجع أنه داء مزمن معك أينما كنت لا يفارقك ولا ينوي أن يودعك..!

لمحت يد «عم إبراهيم» تتدلى بوهن حاملة سيجارة تحترق مثله، فمنذ أن تُوفيت زوجته وهو في غيبوبة الحياة، يعمل ليل نهار لكي ينهك جسده ولا يشعر بتلك الأوجاع التي تهاجمه وتفترس روحه، وبدأت تتراقص روحها كراقصة الباليه على صوت فيروز، وألقت بمعطفها بعيدًا ففي حرمة صوتها ودفئه يخجل دفء الأشياء ويهرب بعيدًا، وعم إبراهيم يدندن بصوت مرتعش:

«صباح ومسا شي ما بينتسى
تركت الحب وأخدت الآسى
شو بدي دور لشو عم بدور على غيره
في ناس كثير لكن بيصير ما في غيره
حبيبي كان هني وسهيان ما في غيره
حملني سنين ما أنهن هينين كتّر خيره
حبيبي منيح لشو التجريح.. تعب مني
أنا اللي كنت ما بفهم بنت.. حمل عنّي
صباح ومسا شي ما بينتسى
تركت الحب وأخدت الآسى
لعلّ وعسى أترك هالآسى
ويرجع لي حبي صباح ومسا

بس أنت أنت وبس».

ظلت تدندن معه وتراقب الناس وهم يجرون في الطرقات من شدة الأمطار، والأطفال غير مبالين ويفتحون أفواههم لكي يتذوقوا الأمطار متخيلين أنها أجمل من الماء الذي يشربونه، فينهرهم أهاليهم متعللين بأنه ماء مختلط بالطين، وهم لا يلقون لهذا الكلام بالًا ويفتحون أفواههم مرة أخرى، وتتوالى الضربات ولا يشعرون بأي أوجاع لأنهم فرحون..!

دقت الساعة الثامنة فهرولت إلى مكتبها وأحضرت تليفونها لكي تتصل بأصدقائها، فمنهم من لم يرد ومنهم من أغلق الخط، الخوف تملكها وأخبرها وهو مرتميًا على ظهره من شدة الضحك:

- ألم أقل لكِ إنهم لن يرتدوا المعاطف ويمسكوا الشمسيات ليأتوا، من تكونين يا فتاتي الصغيرة لكي ينزلوا ويكابدوا البرد من أجلكِ..؟!

- أنا صديقتهم..! وهذا يكفي لكي يحاربوا الأمطار من أجلي، وبالتأكيد سوف يأتي أصدقائي المقربون، فليس جميعهم مقربين لي، فلن أحزن على هؤلاء إذا لم يأتوا، أنا دعوتهم فقط لكي لا يضجروا مني ليس إلا..!

- كلامك مضحك..ألديكِ القليل من الماء لأني أكاد أموت من الضحك..!

تأففت وألقت بالتليفون بكل قوة على مكتبها فاصطدم بدفتر الذكريات وألقاه على الأرض، فحملته وكأنه طفلها وضمته إلى حضنها ودفنت أنفها بين أوراقه لكي تستنشق عبيره، فكل ورقة تحمل عطر أصحابها، وتحكي جدرانه حكاية عن صداقة دافئة كانت أو ما زالت.

وهو آخر شيء يربطها بكل شيء، بأصدقائها المقربين، وبأصدقائها الذين رحلوا ولم تعرف عنهم أي شيء منذ أن تخرجوا من كلية الهندسة، وبأصدقائها الذين أوجعوها بإهمالهم لها وكذبهم عليها في مواقف كثيرة، وهي لم تقطع علاقتها بهم إلى الآن، ولكن حينما تنهار الثقة لا تعود ملامح الصداقة كما هي ولا يعود شيء كما كان، وهذا هو سبب آلامها، فكلما رأتهم تظل تنظر

إليهم بالساعات تريد أن تتقبل الحقيقة التي ينكرها قلبها إنهم غرباء، مثل غرباء الطريق، وأحيانًا تشعر بأن غرباء الطريق أقرب؛ على الأقل أنها لا ترى منهم شيئًا ينفع أو يضر.

جلست على السرير تهز أرجلها وتفتح دفتر الذكريات وتغلقه كثيرًا إلى أن سقطت ورقة شيكولاتة، فأمسكتها برقة خائفة أن تمزقها، وتذكرت حكاية تلك الورقة، كانت تجلس في أحد طرقات الجامعة ورأت زميلها آتيًا من بعيد ويسير بكل حدة متجهم الوجه، وجلس بجوارها تاركًا مسافة بينهما متظاهرًا بأنه لم يراها، فنظرت إليه وهي تشيط من الغيظ:

- ألم تراني؟

ظل يصدر صفيرًا، ويتطلع إلى المارة، ويلوح لأصدقائه ويصيح:

- الامتحان سيئ..! لم أحل إلا سؤالين، بالتأكيد أنتم لم تتركوا سؤالًا إلا وأجبتم عنه..!

تأففت ولملمت كتبها وهمت بالرحيل، فوقف زميلها في وسط الطريق قائلًا بأعلى صوت:

- كل سنة وأنتِ طيبة يا رفيقة الدرب.. يا من ترفضين أن تغشيشني في الامتحانات..!

خجلت ونظرت إلى الأرض، فابتسم وأهداها شيكولاتة بورقة حمراء أكثر نوع تحبه، فما أجمل أن يهدى الإنسان شيئًا يحبه لا شيئًا يختاره له الناس من وجهة نظرهم.

تراقصت الدموع في عينيها، وظلت تتساءل: أين هو الآن؟ فلقد سافر لكي يعمل مهندسًا في الكويت وانقطعت أخباره عنها منذ أن نقل إلى شركة أخرى، وكما نسيها الفترة الماضية فبالتأكيد سوف ينسى عيد ميلادها; على الرغم من أنه لم ينسه ولو لمرة واحدة طوال سنوات الدراسة، وحتى عندما سافر كان يتصل بها أو يرسل لها رسالة نصية، وضعت الورقة في الدفتر مرة أخرى; فهو كالجدران شاهدًا على طريق طويل يملؤه الحب، وفيه أجمل لحظات سرقت

في غفلة من الحياة، وحينما أفاقت من غفلتها سرقتهم جميعًا وفرقتهم لكي يسير كل منهم في إتجاه، ولا يصمد إلا من رفض أن تسرقه الحياة..!

فتحت التليفون لعلها تجد تلك الرسالة التي تنتظرها ولكنها لم تجد شيء، ولم تجد أي مكالمة من أصدقاؤها، ظلت تنظر من النافذة بعينين فاقدتي الأمل وتبكي مثلما تبكي الدنيا بأمطارها، محتضنة دفترها لكي يدفئها قليلًا أو يهدئها أو حتى يعطيها أمل أنها سوف تأكل الكعك وتحتسي الشاي مع أصدقائها فهي لن تشعر بحلاوة الكعك ودفء الشاي إلا في وجودهم..!

ظلت تبكي والخوف يضحك منها ضحكًا هيستيريًّا:

- لا تمتلكين أصدقاء، ولا هناك أحد على سطح الكرة الأرضية يهتم لأمرك، كم أنتِ ساذجة..!

انهارت في البكاء والكحل يسيل على وجنتيها معلنًا عن بداية فصل الأحزان في قلبها، وأمسكت بإحدى مقابض النافذة لكي تغلقه فإذا بها ترى من بين ثناياها أصدقاءها، يظهرون كالشمس حينما تشرق بعد الغيوم، يجرون ويضحكون ويضرب بعضهم بعضًا بالشمسيات ويحتضنون الهدايا خائفين من أن يبللها المطر، فأغلقت النافذة ومسحت دموعها سريعًا ووضعت كحلًا فقط، فهي لا تحب المساحيق، فلقد ربتها جدتها على أن المساحيق تجعل الوجه يشيخ قبل أوانه، وهي صاحبة وجه ملائكي فلماذا تحوله لوجه شيطاني..!

هرولت إلى الصالة لتجد أمها تتأفف وأباها يبتسم لها وهو يضع الكعكة على السفرة ويزينها بالشموع، فتقبله، وقبل أن تتفوه بكلمات الشكر له يدق الباب فيقول:

- افتحي لأصدقائك، أسرعي..!

فتحت الباب، وارتعدت ملامحها، وضربات قلبها تتسابق لرؤية ما الذي أفزعها، وعيناها ثابتتان تحاول أن ترى من لم يزر خيالها حتى بالصدفة، ملامحه لم تتغير، حتى وقفته الحادة، متجهم الوجه، وفجأة ضحك وقال لها

بصوتٍ عالٍ:

- كل سنة وأنتِ طيبة يا رفيقة الدرب..! يا من استوليت على منصبي في الجامعة، وأصبحت معيدة، وأنا تحملني بلاد وتلفظني بلاد، هنيئًا لكِ..!

خبأ إحدى يديه خلف ظهره ومط حاجبيه:

- بالطبع تريدين أن تعرفي ماذا أحضرت لكِ..؟!

فأجابته بابتسامة رقيقة:

- بالتأكيد أريد أن أعرف.

وكالساحر أظهر العلبة أمامها، علبة كبيرة زرقاء ومزينة بنجوم ويعلوها «دبدوب» صغير يحمل ورقة، أخذت العلبة ولمست الورقة لكي تقرأ الكلمات: «الحلم، كأغنية لا تنتهي فيها الموسيقى، ككلمات لا تنمحي منها الحروف، لا تتوقف الموسيقى إلا حينما تتوقفين عن العزف، ولا تنتهي الحروف إلا حينما تتوقفين عن الكتابة، الحلم ينتهي لا حينما نتعثر بل حينما نتوقف، فلا تتوقفي».

سرحت مع أحلامها التي تتمنى أن تحققها، ولا تعرف هل هي الآن تحلم أم لا..! فأحيانًا من شدة صدق أحلامنا وصدق مشاعرنا نشعر كما لو كانت حقيقة، وبعدما نستيقظ نعرف أنه مجرد حلم جميل..!

فرقع أصدقاؤها بعض المفرقعات على الأرض، ارتعدت وضحكت ضحكًا هيستيريًا ثم سمحت لهم بالدخول، ورحب بهم الأب والأم، وجلسوا جميعًا ما عدا زميلها وقال بوجه ضاحك هذه المرة:

- إذا لم تفتحي الهدية الآن، فسوف أخذها وآكل جميع ما فيها وأخرج لكِ لساني..!

- لن أعطيك هذه الفرصة..!

صوت فتح العلبة أشعرها بأنها تفتح باب عالم جميل يشبه عالمها كثيرًا، عالم مليء بالحلوى، عالم يحكي حكاية بنت كل عام تزيده ينقص من روحها عامًا

لتظل طفلة ولا تشيخ أبدًا، تلك الطفلة التي تتراقص بداخلها من الفرحة ولكنها تخفيها، لأنه ليس الوقت المناسب.

نظرت له وهي تعبث بالشريطة المتدلية من العلبة:

- شكرا لك كثيرًا يا رفيقي، فأنا لم أتوقع مجيئك اليوم..!

- بصراحة أنا لم أرتب للمجيء، وإنما جئت في مهمة عمل، ومن حسن حظي أنه كان موافقًا ليوم عيد ميلادك، كل سنة وأنتِ طيبة يا شهد..!

- وأنت طيب يا فريد..!

جذبها صديقاتها البنات بشدة:

- لن نعطيكِ الهدايا إلا بعد أن نأكل كل ما لذ وطاب، لن نفعل مثل فريد، فهو لا يشتهي الأكل كثيرًا، أما نحن فنشتهيه..!

نظر إليهم فريد في عجرفة:

- أنتم آكلون بشر..!

ضحك الجميع ودعاهم الأب والأم لكي يطفئوا الشموع، وأطفئت جميع الأنوار وألتف الجميع حول الطاولة، احتضن الأب ((شهد)) بينما الأم واقفة بجوارها تراقب أصدقاءها بعيون كالصقر، وتراقب أصابعهم لكي تعرف هل أحد خطب أو تزوج؟ لكي تقتنص الفرصة وتنهر ابنتها على رفضها العرسان الذين لا يعيبهم أي شيء غير أنها لا تحبهم، عن أي حب تتحدث في زمن انقرض منه الحب..! حتى رفيقها هذا المدعو فريد تقول دائمًا: هذا رفيقي وأخي ولم أتخيله يومًا غير هذا..! كم هي غبية..! وما الزوج إلا رفيق وأخ في الحياة..! لا تعرف سببًا واضحًا لغبائها هذا إلا أنها اكتسبت بعضه من طبع أبيها الحالم، الذي لا يجني المال ولا يجلب لها إلا أوجاعًا مزمنة في القلب..!

فتح فريد حقيبته وأخرج منها طراطير وارتداها الجميع، وظلوا يغنون لها أجمل أغاني أعياد الميلاد ويصفقون ، شعرت ((شهد)) أنها محاطة بهالة من الفرحة، وأنها لم تكبر ولم تتخرج ولم تتحمل مسئوليات الحياة، وأنها ما زالت صغيرة لا يهمها إلا تصوير الأوراق وشراء الكتب وأكل سندوتشات من مطعم

الجامعة.
أغمضت عينيها لكي تتمنى أمنية، ومرت حياتها أمام عينيها في لمح البصر بحلوها ومرها ولكنها لا تندم على شيء، واعتبرت أن هذا اليوم يوم ميلاد جديد في كل شيء في حياتها وليس مجرد رقم يتغير، وتمنت بقلبها أن يرضى الله عنها لكي تشعر بأن كل شيء راضٍ عنها، ثم فتحت عينيها ونفخت كل أوجاع السنة الماضية وأطفئت بها الشموع.
أضيئت الأنوار لكي ترى الحقيقة، فأحيانا جلوسنا في الظلام لفترة يجعل عيوننا تقاوم أن ترى نور الحقيقة، فنورها قوي وساطع لا يمكن أن تهرب منه، والحقيقة أنها رأت أن من شاركها اليوم وكان السبب في فرحتها; هم مجرد أصدقاء جمعتهم سنوات الدراسة ولا تهتم بهم كثيرًا، على الرغم من أنهم يحبونها ودائمو السؤال عنها، فهي كانت مشغولة بهؤلاء الأصدقاء الذين لم يأتوا اليوم، وكانت دائمًا تحب السؤال عنهم والخروج معهم والتفاني من أجلهم، ولكن أين هم الآن..؟!
أدار الأب موسيقى هادئة وجلسوا جميعًا في الشرفة يأكلون الكعك ويحتسون الشاي، وكل منهم وضع المعطف على رجليه على الرغم من أن البرد القارس يحتل المكان، فهم يرتدون معاطف أجمل وأشد دفئًا منسوجة من دفء ضحكاتهم العالية التي تقفز بين كل رشفة شاي فينسكب قليلًا من الشاي الساخن على أرجلهم فيلكز بعضهم بعضًا، ومن أصواتهم التي تقاطع بعضهم البعض لكي يكملوا القصص التي تروى من الماضي.
يرن تليفون ((شهد)) فتجد رسائل من أصدقائها يعتذرون عن عدم الحضور لسوء الأحوال الجوية، فألقته بعزم ما فيها على الطاولة فلقد عرفت اليوم أنها يجب ألا تدير ظهرها لأحد ولا تعطي وجهها لأحد، ففي اللحظة التي تعطي فيها ظهرها لأناس يحبونها سوف يأتي اليوم ويسأمون منها ويرحلون، وحينما تعود قد يكون فات الأوان ونسوها، ولا تعطي وجهها لأناس قد يصفعونها يومًا، بل تقف في خط متوازٍ وتنظر يمينها ويسارها وترى من

يحبونها ويريدونها ومن لا يحبونها ولا يقدرونها.
همت بفتح الهدايا ومع كل هدية أهدوها الفرحة، فلقد أهدوها كل شيء تحبه وتتمناه، فهم يحبونها لدرجة أنهم يعرفون ماذا تحب..! وماذا يفرحها..! وأجمل هدية جاءتها اليوم من الأمطار، إنها أهدتها أصدقاء يحبونها كما هي، لا ينتظرون منها شيئًا، وكل الذي يتمنونه من الدنيا أن يروها بخير وطيبة وسعيدة..!

قهوة
وقطعة حلوى

خرجتْ توًّا من عملها والإرهاق رفيقها الذي يرافقها عنوة كل يوم، وعلى الرغم من ذلك الشعور أبت أن تعود إلى البيت مباشرة مثل كل يوم، وقررت أن تسير في أرجاء المدينة وتترك سيارتها المكيفة، على الرغم من شدة الحرارة في هذا اليوم، كانت تريد أن تكسر يومها الرتيب الذي ليس له طعم أو رائحة، أن تضع له بعضًا من مكسبات الطعم لعل حالها يتغير، كانت تسير بوهن إلى أن اقتحمت قلبها رائحة قوية من محل على بعد خطوات منها، رائحة حضنتها بكل قوة، رائحة نجحت في طرد رفيقها الإرهاق بعيدًا عنها، إنها رائحة القهوة.

رحل عنها الكسل والوهن وبدأت تركض وراء الرائحة لتصل إلى هذا المحل سريعًا، وعندما وصلت إليه هلت الابتسامة على وجهها مثل هلال رمضان; وقبل أن تدخل نظرت في زجاج محل القهوة لكي تتأكد من جمال مظهرها، فشربها القهوة تسبقه طقوس.

دخلت واختارت منضدة وكرسيًا بجوار نافذة زجاجية تطل على الشارع، فعينيها تحب أن تشعر بمرور الناس، وبحركاتهم الفجائية، وسقوطهم بدون سابق إنذار، وضحكاتهم التي تعقب سقوطهم من شدة الخجل، وأيضًا تنتظر شيء..هي دائمًا تنتظر..! أخذت تنظر إلى صور القهوة المعلقة على الحوائط وتتأملها; فهي تعشق القهوة بدرجة جنونية وتعشق أن تتناول معها قطعة من الحلوى، وعشقها للقهوة ليس عبثًا أو أتباعًا لأحد ;وإنما لشعورها بأنها تغمر كل كيانها بحرارة بنفس قوة مرارتها وقطعة الحلوى تضيف لهذا الكيان أنسًا بنفس روعة مذاقها الحلو.

المكان صخب..! فهي هادئة الطباع وتحب دائمًا الهدوء، ولكن قلبها اليتيم جعلها تجلس في هذا المقهى الذي يعج بالناس وبالسماعات المعلقة في الأسقف التي يصدر منها الموسيقى الروك، وعلى الرغم من أنها تمقت هذه الموسيقى التي تسبب لها الصداع..! وتكره رائحة الأدخنة المنبعثة من السجائر فإنها في هذا اليوم لا تبالي..!

نادت النادل وطلبت قهوة وقطعة الحلوى، وجذبتها ضحكة تشبه كثيرًا ضحكة جدها، فعندما تحب أحدًا تحفظ حركاته وضحكاته ومزاحه وبكاءه، تطبع ملامحه بداخلها، وضحكة هذا الرجل أيقظت في قلبها الاشتياق لجدها الذي هاجر إلى كندا منذ سنوات، وأصبح لا يحدثها كثيرًا رغم أنه يحبها جدًّا، ولكن هذه هي الغربة مثل الأرض الجافة تحتاج أن تسقى من عرق وجهد وصحة من يسافر إليها، وتسلب كل شيء جميل في الإنسان، هكذا فعلت الغربة بجدها، أمتصته وألقت به في خضم العمل والسعي لجني المال.

أخذت تتأمله وتبتسم وكأنها سلخت ملامحه عنه ووضعت ملامح جدها، تذكرت قبل أن يسافر إلى الخارج أنه كان كل يوم جمعة يشتري الطعمية الساخنة والخبز الطازج وتنبعث من كليهما رائحة تندمج مع الأخرى بشكل غير طبيعي فتنتج رائحة تفوق الخيال، ويجلسان في الشرفة ويتناولان الفطور معًا، ويظل يحكي لها عن صديق عمره الذي هاجر إلى الخارج، وعن أيام الطفولة، وعن سهرهم في حي الحسين فلقد كانا يذهبان هناك باستمرار لكي يجلسا في المقهى، ويحتسيان الشاي المنكهة بالنعناع ويلعبان الطاولة.

وفجأة عين الرجل تسلطت على عينيها فلقد لفت انتباهه نظرها إليه، فارتبكت فحلقت بعينها في أرجاء المكان، فلمحت النادل يبتسم لها وهو يحمل القهوة وقطعة الحلوى، فابتسمت واستقبلت القهوة وقطعة الحلوى بنظرات كلها شوق، واعتذر لها عن التأخير، وانصرف لكي يلحق تلبية باقي طلبات الناس; فطلباتهم لا تنتهي، فأخذت نفسا عميقًا وضمت الفنجان في حضن كفيها وبدأت ترتشف القهوة، وقضمت قطعة صغيرة من الحلوى، فأغمضت عينيها من حلاوة مذاقهما معًا..! كانت تفكر دائمًا لماذا عندما يفرح الإنسان يغمض عينيه..؟! فوجدت الإجابة في هذه اللحظة: لكي ينفصل عن قسوة الواقع ويسافر إلى عالم الخيال الذي يشبه مغارة «على بابا»، فيها كل ما تشتهي النفس.

فتحت عينيها بكل هدوء على عيني طفل يبتسم لها، ويلوح لها ويتمتم

بكلمات لم تسمعها من شدة صخب المكان، وأمه تربت على ظهره لكي ينام، ولكنه عندما رآها أبى النوم وظل ينظر إليها، سرحت في عينيه البريئتين وضحكته المشرقة التي شعرت فيهما بنقاء تشتاق له، ومد يده إليها يريد أن يلمس يديها، فلم تتمالك نفسها وذهبت تجاهه وكأنها مسحورة، ومدت إحدى أصابعها إليه فأمسكها بقوة، وضحك لها ضحكة ليس لها مثيل..! فقبلت يداه الصغيرتين بشفتان ترتعشان وعينان تلمعان.

خجلت عندما وجدت أمه وأباه ينظران إليها بتمعن وكأنهما مندهشان من انشغالها به، أو من الممكن أنه هيئ لها ذلك لحساسيتها من هذا الموضوع، فابتسمت لهما وانصرفت، حينها أطلق الطفل صرخة مدوية ومد يديه لها لكي تعود، فدمعت عيناها وأخذت نفسًا عميقًا لكي لا تبكي، فالمجتمع حول البشر إلى تماثيل لا يبكون أمام الناس ويخفون فرحتهم لكي لا يحسدون.

انتبهت إلى أن قهوتها قد بردت، وعلى الرغم من ذلك شربتها، وظلت تأكل من قطعة الحلوى وتتفقد الناس وتتمعن فيهم، وكأن الناس أبطال قصة بداخل قلبها يحكون حكاية عن جزئها المظلم، عن أنها تتمنى لو أن البشر تشترى مثل الأكل والشرب لكانت اختارت منهم كل ما تفتقده، كانت اختارت من هم يحبونها من كل قلوبهم، من يضحكونها، من يهتمون لأمرها، من يحب أن يخرج معها، من يسمعها بقلبه، من ينصحها، من يفهمها كما هي لا كما يتخيلون..!

ولكن للأسف لا ينفع أن تشتري بشرًا لأنهم ليسوا بسلعة، بل هم من المفترض أرقى المخلوقات، ولكن المخلوقات بتصرفاتهم هم من جعلوها تفكر بهذه الطريقة، جعلوها تشعر بالدفء مع القهوة وقطعة الحلوى، تشعر بالمحبة في وسط بشر لا تعرفهم.

ما أبشعه عذاب أنه من يشعل نيران الأنس في مدفئة كيانك ليس من دمك ولحمك، بل بشر لا تعرفهم ولا يعرفونك، وجوه تألفها وترتاح لها، ووجوه لا تألفها وتخشاها، قلوب نقية وقلوب عكرة..!

أما من هم من لحمك ودمك يعاملونك بقوانين صارمة، لا يهم أن تكون سعيدًا أم شقيًا..! المهم إما أن تخضع لهم وإما أن تلفظ خارج هذه المنظومة التي لا تؤمن بأنها تحب إنسانًا بعيوبه ومميزاته، فإن وجدوا ما يبحثون عنه بداخلك انهالوا عليك بالقبلات، وإن لم يجدوا ما يبحثون عنه فتعامل مثل الكلب الضال المصاب بالجرب، لا يهم أنك طيب أو خبيث القلب..! المهم أنك تخضع..!

وهي رفضت الخضوع..! لأنها رفضت أن تكون أمة لهم، فهي خلقت حرة وستموت حرة..!

وفجأة سمعت أصوات تألفها تنادي عليها بكل قوة وصرخات متعالية..! فرفعت عينيها لتفاجأ بأنهم أصدقاؤها ((أصدقاء الجامعة)) فهي لم تراهم منذ خمس سنوات، أهي صدفة..؟! هي لا تؤمن بالصدف وإنما هو ترتيب من عند الله.

هرعت إليهم وارتطمت بالنادل، وكادت أن تسقط الصينية من يده ولكنه لحقها، نظرت إليهم قليلًا لكي تصدق أن ما تراه حقيقي، ثم احضنتهم وبقيت في أحضانهم لثوانٍ سعيدة بسماع نبضات قلبهم.

جلسوا جميعهم وطلبت نور من النادل المأكولات والمشروبات التي يحبونها، وهم متعجبون كيف تتذكر بعد كل هذه الفترة الكبيرة ماذا يحبون..! وطلبت لنفسها مرة أخرى قهوة وقطعة حلوى رغم إحساسها بالشبع، وأصبحت لا تشم رائحة السجائر ولا تسمع ضجيج الموسيقى، ففرحتها بهم أنستها كل ما يعكر صفوها.

شعرت معهم أن السنين لم تمر ولم يتبدل حالها، وتذكرت أيام مذاكرتهم مع بعض، وأيام خروجهم من الباب الرئيسي لجامعة القاهرة لتصوير الأوراق، ظلت تتحدث معهم وتضحك ضحكات طازجة مليئة بندى الفرح، ولأول مرة منذ فترة كبيرة تشعر أنها تتعامل بشخصيتها; التي تعشق الضحك والمرح، من دون أن تصمت من أجل أن تتحاشى المشاكل أو تبتسم ابتسامة صفراء

لكي ترسم دورها بإتقان.
ومر الوقت مع أصدقائها في لمح البصر وحان الوقت لكي يرحلوا، ومرة أخرى الحزن أحضر أسفاره، ونور التي كانت سعيدة بوصولها إلى ميناء قلبها، جهزت هي أيضًا أمتعتها لكي ترحل مرة أخرى عن وجودها، وفي لحظة تبدلت ملامحها، وقلبها وعيناها ينظران في عيون أصدقائها تترجاهم أن يبقوا ولو قليلًا..! فهم لا يعرفون كيف أنست بهم..! وكيف أيقظوا أحساسًا كان مقتولًا بداخلها من ضمن أحاسيس كثيرة قتلت وتحولت إلى جثث، والقاتل الحقيقي ليس هي بل من يعيشون حولها، حضنتهم بشدة وكادت أن تبكي، ولكنها حبست دموعها في أغوار قلبها، واكتفت أن تأخذ أرقام تليفوناتهم على أمل أن تشرب فنجان قهوة وتأكل قطعة حلوى مرة أخرى معهم.
جلست قليلًا لكي تتأكد من أن أرقامهم قد سجلت، فتفاجأت إنها محيت تمامًا ليس لها آثر، لا تعرف ماذا حدث..؟!
هل ضغطت على زر المحو بدل الحفظ..؟!
لا تعرف شيء..!
فشربت القهوة سريعًا، والتهمت قطعة الحلوى ودفعت الحساب ورحلت..!

الفستان الأبيض

٣٣

جلست على أريكتها الحمراء تحتسي القهوة وتتصفح الجريدة بلا مبالاة؛ فالجريدة لم تعد مثلما كانت في سالف العصر، فمنذ فترة ليست بالبعيدة كانت تقول شيئًا أما الآن فهي عبارة عن صور أكثر من الكلام أو كلام من غير أفعال هذا هو رأيها..!

والذي يجعلها تلجأ لهذا ليس لأنها لا تملك ما يشغلها، بل هروبًا.. هروب من أشياء إلى اللاشيء، فالقلب يحزن ويفرح ويجن ويهدأ، ولكن ما أصعب حينما تشتعل به النيران..! فنيران الدنيا من الممكن أن يطفئها الماء ولكن نيران الفقد ما الذي يمكن أن يطفئها؟ فمن الممكن أن تصغر وتصبح شعلة صغيرة ولكن مع أول إثارة لها تشتعل مرة أخرى، وحرائق قلبها لم تنطفئ بعد لكي تشتعل حرائق أخرى تؤلمها.

ارتعدت ملامحها حينما قرأت تاريخ الجريدة ٢/١٥، فاليوم ليس يومًا عاديًا لكي تنساه، ظلت تحدث نفسها وهي تقضم أظافرها:

- كيف نسيت..؟! إن اليوم هو ذكراك..!

هرولت إلى حجرتها وفتحت ضلفة الدولاب بضعف ووهن؛ فلقد أنهكها الحزن وسلب من قوتها الكثير، وانفجرت دموعها كالبركان تكاد تصهر ملامحها، وتجفف عينيها لكي تستطيع أن ترى ملابسها، فنظرت في دولابها حائرة ماذا ترتدي في ذكراه..؟! هل ترتدي ملابس باللون الأسود أم الأبيض..! كم تكره أن يتمثل الحزن والفرح في لون معين..! فارتديت بنطلونًا وبلوزة بيضاء، لأنه كان يحب هذا اللون الذي يشعره بأن قلبه في سلام وعقله في صفاء..!

ويكره اللون الأسود الذي يكسو جدار القلب من جرَّاء اشتعال معارك الحقد والغل، ولهذا لن ترتدي ملابس بهذا اللون، فاليوم ليس يومًا عاديا، فاليوم ذكراه ويجب أن تحييه بكل شيء يحبه..!

هرولت إلى الشارع ولم تركب سيارتها، فهي تريد أن ترى ملامحه في ملامح الشوارع، وتستنشق عبيره من الأماكن التي كانا يجلسان فيها معًا، فهنا

«القهوة البلدي» كما هي لم تتغير كثيرًا، فجدرانها ما زالت مطلية باللون الأزرق، كساها فقط بعض الملصقات الورقية وآثار لشحوم السيارات، سرحت في قوالب الطوب البارزة من تلك الجدران، فتذكرت عندما كانت تخرج من عملها منهكة ومضجرة، ويتصل بها ليطمئن عليها، فيجدها تلتقط أنفاسها بصعوبة من ثقل صدرها بالهموم، فيقول لها:

- أنا منتظرك فى المقهى..!
- لن أقدر، أنا متعبة..!
- اسمعي الكلام..!

كانت لا تستطيع أن ترفض له طلبًا فهي تحبه حبًا جمًا، وبمجرد أن تراه يجلس على هذا الكرسي المتآكل الأرجل، ويحتسي النعناع الساخن، ويستمع إلى فريد الأطرش، كان التعب والضجر لا يجدان مفرًا إلا أن يتنحيا فورًا عن متن قلبها، فتحتضنه وتقبله من جبهته، فيخجل وتحمر وجنتاه اللتان كانتا تزيده جمالًا مع عينيه الزرقاوين، ويقول لها:

- نحن في المقهى..!
- ولماذا الخوف..؟! فالجميع هنا يعلم أنك أبي..!
- ماذا بكِ؟
- متاعب العمل وعندما رأيتك نسيت كل شيء..!
- اعترفي أنكِ تحبيني ولا تقدرين العيش من دوني..!
- بالطبع أحبك ولا أقدر العيش من دونك..!
- ماذا تفعلين إذن عندما أموت..؟!
- لماذا تقول هذا الكلام الذي يقتلني..؟!
- لأنها الحقيقة..!

وهي الآن تعيش الحقيقة..! فمنذ أن تُوفى شعرت بأن «الغطاء» الذي كان يغطيها لكي يحميها من الدنيا انكشف، وأنه لم يعد هناك حضن تطفئ فيه حرائق قلبها، فيزداد خوفها و نحيبها..!

ظلت تتأمل الشوارع، فكل مكان يحتضن ذكرى، فهنا «الحاتي» تتصاعد من مدخنته أدخنة شواء اللحم، فيذكرها به فلقد كان يحب اللحم المشوي، ولا تصمد معدته أمام هذه الرائحة كثيرًا، فينظر إليها كالطفل ويقول:

- أريد أن أتناول الكباب والكفته..!
- الدكتور منعك منها من أجل صحة قلبك..!
- هذه المرة فقط..!

فتنظر إليه بنظرة حانية مثل نظرة الأم لابنها، فيحضن كفه كفها الصغير ويجري بها لكي يعبرا الشارع، ويطلبا الأكل، ويظل يأكل بنهم مثل الطفل وهي تنظر إليه وتغمره بحبها، وبعد أن ينتهي يقول:

- أتعلمين ما أجمل سرقة..؟!
- لا..!
- أن تسرقي الفرحة من أنياب الحياة، ولهذا أنا أشعر بالسعادة لأني سرقت اليوم فرحتي رغم أنف الحياة وأنف الدكتور أيضًا..!

شعرت وهي تسير في تلك الطرقات أن روحه تحتضنها؛ فهذه الشوارع تشبعت من دفئه وحبه وحنانه، فوجدت نفسها أمام «محل ملابس» كان يشتري لها منه دائمًا، ورائحة البخور تنبعث منه، وعبد الحليم يشدو بالأغنية التي كان يحبها «أعز الناس»، فلقد كان يجلس في الشرفة ويدندن بهذه الأغنية وهو يعزف على العود، فصوته ليس جميلًا ولكن دفء قلبه كان يغلف أحباله الصوتية فيجعله مطربًا، وأجمل يوم غنى فيه هذه الأغنية كان يوم نجاحها في «مسابقة للرسم» فلقد كان سعيدًا بها:

«حبيب قلبي وروح قلبي حياة قلبي
يا أغلى الناس يا أحلى الناس يا كل الناس
لسه مشوار الحياة شايلنا وقفات
معالم في طريق الحب أجمل بكتير من اللي فات..».

شعرت بقدسية في هذا المكان وكأن روح أبيها تسكنه، فدخلت مسلوبة

الإرادة وتنفست الصعداء، وتذكرت آخر مرة جمعهما هذا المكان، فلقد كانت تشتري «فستانًا أبيض» لكي تحضر به زفاف صديقتها، فيومها كان يضع عطرًا خلابًا يخطف الأنفاس، وكلما كانت تقيس فستانًا كان عطره يحاصرها؛ فتأخذ نفسًا عميقًا لكي تملأ به روحها.

انتفضت عندما فوجئت بصوت حانٍ يقول لها:

- هل أعجبتكِ الفساتين؟

نظرت إليه وأصبحت فاغرة الفاه، فعيون هذا الرجل تشبه عيون إبيها، صافية مثل السماء، ونقية مثل الأنهار، وبها سلام وراحة، وبها بريق يفوق بريق القمر مثله تمامًا، أوشكت أن تصاب بالجنون، فصمتت للحظات محدثة نفسها:

- هل يعقل أن تتشابه العيون في لونها وروحها وملامحها، أيعقل هذا..؟!

ثم لاحظت أنه استغرب من عدم جوابها، فقالت وهي تحاول أن تخبئ دموعها بالمناديل:

- الفستان الأبيض يعني لي أشياء كثيرة..!

- إنه حلم جميع الفتيات بأن ترتدي الفستان الأبيض..!

- في الحقيقة ليس هذا هو السبب الرئيسي، بالتأكيد أنا أحلم مثل أي فتاة، ولكني أحبه لأن أبي كان يحبني في اللون الأبيض ويراني كالملاك، ودائمًا كان يقول لي: مهما ضاقت روحك فمع اللون الأبيض سوف تشعرين بالراحة ليس لأنه لون الفرح ولكن لأنه لون صافٍ ونقي. وأول فستان أبيض اشتراه لي كان في عيد ميلادي الثاني عشر، ومن يومها كل عيد ميلاد يشتري لي فستانًا أبيض جديدًا، ولكي لا أكذب عليك هو من تمنى أن يراني بالفستان الأبيض بجوار زوجي، وكان يحلم كثيرًا بأن تعانق يدي يده، ويسلمني إليه ويقرص أذنه متوعدًا بعقاب لم يشعر به من قبل إذا أحزنني أو جعلني أبكي يومًا، فالفستان الأبيض يعني لي أبي..!

شرد الرجل في حديثها ثم تنهد وقال:

- اشتقت أن أتعرف إلى أبيكِ..!

نظرت في الأرض محاولة أن تجذب دموعها بعيدًا عن أعتاب جفونها:

- اليوم ذكرى وفاته..! وأتيت إلى هنا لكي أعيش نفس اللحظات التي عشتها معه من قبل، أعلم أني أتألم ولكن أن أتألم مع روحه أخف عندي من الألم مع الوحدة..!

- هل كنتِ تأتين إلى هنا مع أبيكِ كثيرًا..؟!

- نعم، ولكني لم أرى حضرتك من قبل..!

- بالتأكيد، لأني اشتريت هذا المحل منذ شهور قليلة..!

نظرت في عينيه تريد أن تغرق فيهما ولا أحدًا ينقذها عندما يسمع قلبها يأخذ شهيقًا ويصدر زفيرًا جرَّاء إخماد الحرائق المشتعلة فيه منذ وفاة أبيها..! وهو أيضًا كان يشعر في ابتسامتها الدافئة بروح ابنته؛ فهما الاثنان ابتسامتهما كضي القناديل تضيء روحه في يوم عاصف، وتذكر في لمح البصر يوم زفاف ابنته، كان كل شيء فيه يبكي، ولكنها لم ترَ دموعه، ففرحتها بزوجها أنستها أبيها وهاجرت معه إلى أستراليا، ومنذ هذا الوقت لم يراها، ونادرًا عندما تحدثه، وكأنه مات، مع أنه ما زال حيًا، ظل ينظر إليها مدهوشًا يسأل نفسه:

- كيف توقظ ملامح بشر لا نعرفهم بداخلنا بركانًا من المشاعر والحنين لبشر نحبهم، ولكن لم نعد نراهم بسبب الموت؛ إما الموت فعليًا وإما الموت معنويًا..؟!

تنفس الصعداء وقال:

- هل تحبين أن تشربي الشاي بلبن..؟!

- بالطبع..! ولكني أخاف أن أعطلك عن عملك.

- أبدًا يا ابنتي، أنا سعيد بكِ يا...

- نهى، وحضرتك؟

- فؤاد..!

- بماذا أناديك؟

- أنا جد، ولكن ناديني كما تشائين..! أما أنا فسوف أناديكِ مثلما كنت أنادي ابنتي «نينو».

ذهب إلى ركن صغير مغطى بستارة حمراء وفيه كل ما تشتهيه النفس؛ بوتاجاز صغير، ورف خشبي عليه برطمانات شاي وقهوة وسكر، وثلاجة صغيرة ملصق عليها صورًا لحفيده، ففتحها وأخرج منها اللبن، ووضعه على النار، وأحضر كوبين ووضع بهما ملعقة من الشاي، وذهب إلى جهاز الكمبيوتر لكي يدير أغنية عبد الحليم حافظ «أعز الناس» ثم التفت إلى نهى:

- أحب هذه الأغنية لأني كنت أسمعها دائمًا وأنا أعد الفطور لابنتي..!

- وأنا أحبها لأنها تذكرني بأبي..!

- هذه الأشياء تصبرنا على فراقهم..!

ابتسما ابتسامة حنين لذكرى حلوة مضت ولكنها لم تمضِ من كيانهما ووجدانهما، وبدآ يغنيان سويًا:

«على طول الحياة نقابل ناس

ونعرف ناس ونرتاح ويا ناس عن ناس

ويدور الزمن بينا يغير لون ليالينا

ونتوه بين الزحام والناس

ويمكن ننسى كل الناس

ولا ننسى حبايبنا أعز الناس حبايبنا

سنين وسنين تفوت ما نحس بوجودها ولا وجودنا

ولحظة حب عشنها نعيش العمر تسعدنا..».

أخرجا كرسيين ومنضدة صغيرة أمام المحل، فالجو مشمس اليوم، وبدآ يحتسيان الشاي باللبن، ثم نظر إليها:

- تذكريني بابنتي في ابتسامتها وشقاوتها..!

- وأنت تذكرني بأبي في عينيه وروحه..!

- لم أشعر بالدفء منذ فترة طويلة، فأنا دائمًا أشعر بالوحدة، ولا أخلد إلى النوم إلا حينما أسمع دبيب أقدام الأطفال أمام باب شقتي أو صوت الجيران وهم يتسامرون أمام العمارة، ولقد اشتريت هذا المحل لكي أشعر بالأنس، فأنا أخاف أن أموت وحيدًا في الشقة ومن دون أن أرى ابنتي وحفيدي..!

غمرت عينيها الدموع أمام كلماته التي تعبر عن الكثير، ولكنها مبتورة، لن تكتمل إلا حينما يحتضن ابنته ويجهش بالبكاء ويهمهم لها بما يحزنه وهو أنه يفتقدها، فكم هي تشعر به..! فهي أيضًا تفتقد أباها..! وتروي اشتياقها له من هذا الرجل، كم تحسد ابنته عليه، وكم هي غبية لأنها لا تعرف أنه سوف يأتي اليوم الذي سوف تخسر فيه ولا يوجد بعده أي خسارة، حينما يموت وتتمنى أن تعود أي لحظة لكي ترتمي في أحضانه الدافئة، فهي تتمنى أباها وهو يتمنى ابنته، كم هي غريبة هذه الدنيا..!

ربتت على يديه وقالت:

- أنا مثل ابنتك وسوف أزورك دائمًا..!

نظر إليها بعينيه الزرقاوين الغارقتين في بحور دموعه، واللتين أحمر بياضهما من البكاء، وقال بصوت مختنق:

- أنا بالفعل أستحق الشفقة..!
- أنا أحتاج إليك، وجودك في حياتي سوف يشعرني بالأمان..!
- ولكنكِ لا تعرفينني، كيف تشعرين معي بالأمان..؟!
- لا يحتاج الأمان إلى معرفة، بمجرد أن تقابل الناس تشعر بالأمان أو الخوف..!
- فكيف ننخدع بهم إذن..؟!
- لأننا أحيانا نكذب مشاعرنا..! وما إن ندخل في العلاقة تصفعنا الحقيقة لتخبرنا أن مشاعرنا صادقة..!
- توعديني إنكِ تزوريني دائمًا، وتشتري فستان زفافك «الفستان

الأبيض» من عندي..!

- أوعدك..!

أخرجت نهى ورقتين من حقيبتها، أخذت واحدة وأعطت فؤاد واحدة وقالت له:

- اكتب رسالة..!

- لمن؟

- لمن تحبهم وتشتاق إليهم..!

- لماذا..؟!

- لكي تحييهم دائمًا في قلبك، ولا يموتون بسبب البعد..!

وضعت نهى الورقة على المنضدة، وتنفست نفسًا من أعماق قلبها، ثم بدأت تكتب:

- ((أبي في ذكراك، أقول لك إني اشتقت إلى حضنك وعطرك الذي يفوح منك بعد أن تحلق ذقنك يوم الجمعة، وأن أتناول معك الطعمية والخبز البلدي الساخن الذي كان لا يحلو طعمه إلا معك، وأن تشتري لي الفستان الأبيض، ورغم حزني فإنني أشعر بالفرحة لأني قابلت اليوم عمو فؤاد الذي يذكرني بك، لن يستطيع أن يحل محلك بل ليس هناك إنسان على وجه الكرة الأرضية يستطيع أن يأخذ مكان أحد، ولكن هو ذلك الطيف الذي يحوم حول مكانك لا يمسه ولكنه يشعرني بك))

أما فؤاد فاستند على حافة الكرسي، ونظر إلى السماء، ثم نظر إلى الورقة وبدأ يكتب:

- ((ابنتي..! اشتاق إليكِ وإلى حفيدي، ألم تشتاقي إلى أبيكِ..؟! سوف أنتظر عودتك دائمًا، ونهى سوف تعوضني قليلًا عن غيابك..!)).

ومع نهاية الأغنية ثنى كل منهما ورقته، وأكملا احتساء الشاي باللبن، ففوجئوا بـ ((تفل الشاي)) يدخل بين ثنايا أسنانهم, فضحكوا لأنهم لم ينتبهوا إلى نفاد أكوابهم..!

الخاتم

٤٣

قبل أن يدق المنبه بدقيقة واحدة دبت روحها في جسدها، تتفقد عينيها أين هي؟ ومن هي؟ وكم الساعة الآن..؟! وفي ثوانٍ معدودات عرفت إجابة كل شيء، ونهضت من فراشها كمن لدغها عقرب تلقي تحية الصباح على أخواتها في عجلة من أمرها، ويردون عليها على الرغم من أن مخارج الكلمات مطموسة المعالم ولكنهم أصبحوا مع مرور الوقت يفهمونها، فهي تتحدث بطريقة سريعة ومن يعرفونها حق المعرفة يفهمون ما تقوله ليس من الكلمات وإنما من انفعالها، وأحيانًا من بعض الكلمات التي تستطيع أن تهرب من سرعتها بأعجوبة وتكشف عن نفسها.

أدارت الراديو لكي تستمع إلى الأخبار التي لا تسر عدوًا ولا حبيبًا، ففي بداية الأمر كانت تغضب وتنفعل وتدخل في مناقشات حادة في شتى مجالات الحياة، ثم بعد فترة اعتادت كل شيء وأصيبت باللامبالاة، تلفتت حولها تبحث عن شيء ضاع، ولا تعرف هل الشيء هو الذي ضاع منها، أم هي التي ضاعت منه..!

كانت تبحث عن ذلك «الخاتم» الذي أهداه لها حبيبها، فأزاحت الثياب الملقاة في كل شبر من حجرتها، وبحثت وراء الستائر، وفي داخل أحذيتها، وفي حقيبتها، ولكنها لم تجده، دائمًا كانت تضعه في علبة قطيفة، ولكن منذ أن اعتادت على وجوده دائمًا معها أصبحت تلقي به في أي مكان في حجرتها، وهي واثقة أنها سوف تجده، ولم تعرف أنه سوف يأتي اليوم الذي تبحث فيه عنه ولن تجده، فعرفت أن ضمان الشيء هو ناقوس الخطر، فليس الخطر أن تموت بل أن تفقد..! أن تخسر..! وأكبر ما في الخسارة أنها لا تعوض..!

لم تبكِ.. فمؤخرًا فقدت القدرة على البكاء، وارتدت الكوفية ولم تضع أي مساحيق على وجهها، ليس بسبب ضياع الخاتم، بل لأنها بسيطة في كل شيء في حياتها، وترى أنها كلما كانت بسيطة ازدادت براءة وطفولة، وهي بالفعل مثل الأطفال نقية وعجزت الحياة أن تلوثها.

ارتدت الحذاء الرياضي الذي اشترته أمس بعد أن تورمت قدماها من كثرة

ارتداء الأحذية الجلدية والهرولة بها في الطرقات، ولا تعرف أن ترى شكل حذائها إلا عندما تتوقف، وهي نادرًا ما تفعل ذلك..!

قبلت أمها وإخوتها بقبلات خاطفة، وهم يحاولون أن يسرقوا منها قبلات، ولكنهم لا يأخذون إلا قبلة واحدة على إحدى الوجنتي، وودعتهم بضحكاتها المتلاحقة، وهرولت على السلالم المتكسر معظمها، وعلى الرغم من ذلك فلم تخذلها السلالم وتجعلها تسقط، فكأنها تحفظ سرعتها وهي تحفظ خطواتها عليها، فهي تعرف متى تدخل قدميها قليلًا تفاديًا لسقطة، ومتى تجعلها تنساب، ومتى تقفز من درجة لأخرى، وهي لا تفعل ذلك مع السلالم فقط، بل تفعله أيضًا مع أحلامها، فهي تعرف ماذا تريد أن تكون، بأن تكون «هي» لا «هم»، أي سائر القطيع الذين يريدونها فقط تسير كالبهائم لا تحلم ولا تطلق لروحها العنان، ولكنها ستظل دائمًا وأبدًا وجهها للقطيع وظهرها لطريقهم الضال لأحلامها..!

خرجت إلى صخب الصباح حيث الزحام، وصيحات الباعة الجائلين، والعاملين الذين ينتظرون الحافلة ولا يحلمون ولا يطمعون إلا أن يتشبثوا في إحدى النوافذ، ويتركوا باقي أجسادهم يحملها الهواء ولا يخافون من الموت، فالنهاية واحدة، فإن لم يموتوا من الحافلة فسوف يموتون حتمًا من الجوع..!

وقفت أمام المحطة عاقدة الحاجبين لكي لا يعاكسها أحد وترتدي نظارتها الشمسية لكي تراقب الناس من ورائها دون أن يروها؛ فهي بالنسبة لها حماية من هؤلاء البشر عديمي الإنسانية، فإذا فكر أحد أن يقترب منها لكي يؤذيها، فسوف تتنبأ بالحدث قبل وقوعه، وتصرخ فيه أو ترش ذلك الرذاذ الذي تحمله في حقيبتها في عينيه لكي تلهبهما وتلوذ بالفرار.

مرت ساعة وهي ما زالت تنتظر «حافلة آدمية» تتمكن فيها من الجلوس على إحدى المقاعد لكي يحميها من الارتطام بالناس، فكم تتمنى أن تضع جسدها داخل صندوق حديدي لكي تحميه من ذلك الارتطام الذي يهز كيانها كامرأة.

وأخيرًا لمحت مقعدًا فارغًا في انتظارها في حافلة قادمة، فصعدت وشعرت بالسعادة لأنها جلست بجوار النافذة، فهي بمثابة «صندوق الدنيا»، فمنها تشاهد الحياة ومنها تطل على حياتها التي أدركت حقيقتها اليوم، حينما ضاع منها الخاتم.

إنها تحترق من داخلها، وضحكاتها المتلاحقة ما هي إلا صرخات أوشكت أن تكون عويلًا، فسرعتها في كلماتها أو خطواتها ما هي إلا هروب، فهي تحب الناس وتتعلق بهم؛ وكم من تعلقت بهم وهم لم يتعلقوا بها، وكم من أحبتهم وأحبت الاستماع إلى أصواتهم وهم لم يمتلكوا إلا صوتًا يزجرونها به جزاء أهتمامها بهم، وأحيانًا أصوات يتحدثون بها عن حالهم لا أكثر، وهروبًا من دوائر مفرغة بداخلها ومن شدة فراغها تسمع أنين صرخاتها وتكاد تصاب بالصمم، والحقيقة التي حاولت الفرار منها أن معظم هذه الدوائر هو يحتلها، فحينما مرضت أمها وكانت بمفردها بالمنزل لا تعرف كيف تتصرف؟ قفز هو إلى قلبها وعقلها، وفكرت أن تتصل به لكي يكون بجوارها؛ فمجرد أن يدفئ بأنفاسه وجودها تشعر بأن الكون يحتضنها ويواسيها..!

فلقد تعرف كل منهما إلى الآخر في موقف مثير للضحك، فلقد كان يمازح صديقه فألقى بزجاجة الألوان عليه، فإذا بالزجاجة تنثر ألوانها عليها، وكانت ترتدي بلوزة بيضاء تحولت في لحظات إلى لوحة ملطخة بالألوان، ولم تتمالك نفسها من الضحك، واعتذر لها، ومنذ ذلك اليوم أصبحا يلتقيان كثيرًا بداخل الحرم الجامعي ويرسمان معًا, وأجمل صورة رسمها كانت لها وهي تبكي من أجل طفل طلب منها أن يشرب ماء، فحاولت أن تعطيه زجاجة مياه غازية لأنها لم يكن معها ماء؛ فأبى وهو ظمآن.

تتذكر هذا اليوم وكأنه أمس، وفي الحقيقة هي تتذكر كل شيء وكأنه أمس، ولم تنسَ للحظة عينيه الخضراوين اللتين يشعرانها بالسلام، وابتسامته التي تطلقها شفتاه بخجل؛ فهي تعشق خجله الذي يزيده جمالًا..!

كم تفتقده في هذه اللحظة بالتحديد عندما جلس رجل بجانبها لا يراعي

أنها فتاة ويجب أن يجعل مسافة بينهما، كم تتمنى لو كان هو الذي يجلس بجوارها لكي يحميها، فلقد كانت عيناه تحميانها من أن ينظر إليها أحد، وكان يراعي حدود الجلوس بينهما، فهو رجل بمعنى الكلمة في نظرها، ولكن أضاعته مثلما أضاعت خاتمها اليوم، فهي لا تضيع من الأشياء، بل الأشياء هي التي تضيع منها، بسبب سرعتها وعصبيتها، فكلاهما يحملان في طياتهما نيرانًا تحرق، فحرقت قلبها وفقدته وهو فقدها بعنده وكرامته التي تأبى أن تحتمل عصبيتها..!

أفاقت على نداء السائق على اسم المحطة التي يجب أن تنزل فيها، فدفعت الناس بإيديها ونزلت بمعجزة ووصلت إلى دار النشر التي تعمل بها، ودخلت إلى مكتبها، وجلست بعصبية على كرسيها الجلد، وفتحت الكمبيوتر، وأدارت أغنية أجنبية إيقاعها سريع، وظلت تراقب «عم سعيد» وهو يحمل تلك الصينية التي تحمل على ظهرها الكثير من الأكواب والفناجين، فلديه مهارة أن يجري بها دون أن تسقط منه، كانت تترقب وصوله فعلى الرغم من أنها لا تتقن فنون شرب القهوة، ولكنها تحب القهوة باللبن لأنها كانت تشربها معه، وبمجرد أن تتذوقها تحضن تلك السنة التي أحبوا فيها بعض، وتسمع حديثه الذي وقر في قلبها وتسمعه بصوته لا بصوتها، وما إن وصل إليها كوب القهوة باللبن بدأت في عملها، وأخذت تقلب بين الأوراق عن «القصة» التي من المفترض أن تبدأ في رسم غلافها.

أمسكت بالقلم لكي تبدأ في رسم الغلاف، ولكنها لم ترسم شيئًا يمت بصلة للغلاف، ووجدت نفسها ترسم ملامحه، فلقد كانت تريد أن تعرف هل الحب أبحر بعيدًا عن ميناء قلبها أم ما زال يرسو فيه منتظرًا وصوله؟ هل تحب إنسانًا أم شبحًا..؟! يظهر في حياتها وقتما يشاء ويختفي وقتما يشاء، يتحدث معها بصيغة الحبيب وفي الظاهر يتظاهر بأنه صديق، كادت تجن من هذه التصرفات..!

ترسم ملامحه بقلمها الرصاص، وتتذكر ما لم تستطع أن تنساه للحظة،

حينما رأته في الكلية وانتفضت وكأنها أصابها ماس كهربي من أسلاك قلبه، وضحكاتها لم تكن صرخات وإنما كانت قهقهات، وظل يومها يتحدث معها ويحكي لها عن مغامراته في عمله الجديد، وأصدقاؤهما كانوا يرقبونهما عن كثب، وصديقتها أكدت لها من تصرفاته أنه مازال يحبها، ولكنها فوجئت أنه يستنكر تصرفاته، وأنه أخطأ عندما وقف معها أمام الجميع، فشعرت بأن الأرض تلف بها، وكادت تفقد صوابها عندما هاتفها اليوم التالي وكأنه لم يقل شيئًا أو يستنكر شيئًا، لا تعرف لماذا كل هذا الإنكار الذي يعيشه معها..؟!

ظلت ترسم ملامحه وتضغط بكل قوة على القلم وكاد يخرق الورق، والتفكير فيه يخرق قلبها وعقلها، فتغرق في التساؤلات أكثر: هل يحبها؟ إذا كان يحبها فلماذا إذن هذه التصرفات الغريبة..؟!

هل هو يتسلى بها..؟!

- لا أعرف..!

قالتها بصوت عالٍ، ثم صمتت، لتسمع نفسها:

- لم يكن يومًا من هؤلاء الشباب الذين يتسلون

فردت عليها بكل عصبية وهي ترمي بقلمها وتمزق الورقة:

- لماذا إذن هالة الغموض التي تلتف حوله..؟! فليقل إنه يحبني أم لا..؟! إنه يستغل خجل الأنوثة الذي يلجم لساني ويعلم أنني لن أتجرأ وأسأله. ... صمتت نفسها للحظات ثم قالت بصوتٍ هادئ:

- لعله متردد في العودة أو متذبذب في مشاعره، أو لعله لم ينضج بعد فهو في أوائل العشرينات والرجل ينضج كلما ازداد عمره..!

فضحكت ضحكات متلاحقة وقالت:

- هذا الكلام غير صحيح، فالنضج ليس بالعمر، ولكنه برجاحة العقل، ولكن لعله متردد كما تقولين، لعل تردده نابع من ثقته أني أحبه وأني لن أضيع منه..!

فقالت نفسها:

- هو الذي ضاع منكِ، وليس العكس، أنتِ ضمنتي حبه، وضمان الشيء هو بداية ضياعه..!

- ماذا تقولين..؟! ولماذا لم يتحمل عصبيتي وجنوني..؟!

- أنتي من أظهرتِ له أنكِ من ممكن أن تنهي كل شيء في لحظة..!

- ولماذا عاد..؟!

- قد تجدي الإجابة، إذا فكرتِ جيدًا فيما فعلتيه، فنحن البشر لا نحب أن نظهر أمام أنفسنا أننا مخطئون..!

نظرت من النافذة لعلها تجد الإجابة، فأخذت تتأمل الأطفال وقت انصرافهم من المدارس وهم يجرون بحقائبهم الثقيلة غير مكترثين لأنهم فرحون بالإفراج عنهم, فابتسمت وتذكرت «دار الأيتام» التي تزورها كل يوم جمعة وتلعب مع أرواح بريئة تشبه روحها، فمعهم تجد نفسها وتتعافى من ضعفها ومن أوجاعها..!

وفاجأة سمعت أم تصرخ في ابنها الصغير:

- أنا لا أحبك، لأنك رسبت في الامتحان..!

فبكي ابنها:

- إذا أخطأت عاقبيني وأحرميني من أشياء أحبها، ولكن لا تشعريني بأنكِ لا تحبيني، فأنا أشعر بأني لا أسوي شيء عندك..!

أغلقت النافذة وبكت، لأنها عرفت الإجابة أنه جعلته يشعر بأنه لا يسوي شيء، إنها تنازلت عنه أمام أول مشكلة حدثت بينهم، والعشرة لا تهون، فما بالك بالحب، أفاقت على جرس هاتفها فأمسكته بوهن لتجده هو من يتصل بها، ولكنها لم ترد عليه لأنها عرفت الحقيقة أنه لن يعود لها مرة أخرى، هو عاد بجسده لكي يشعر بحبها له، بأنه يسوي عندها الكثير، عاد لكي يعاقبها على ما اقترفته في حقه، فألقت بهاتفها في حقيبتها، وغمرت عينيها الدموع، وزادت ضربات قلبها توسلًا لها بأن تجيب، ولكنها لم تسمع كلامه هذه المرة، وفتحت النافذة مرة أخرى، وأخذت تدندن مع أغنية فيروز تسمعها عبر

الأثير:

فيسألني القمر

يا حلوة ما الخبر..؟!

فأجيبه والقلب قد تيمه الحب يا بدر أنا السبب

أحببت بلا أمل..».

فتنهدت نفسها وقالت:

- اليوم أنتِ أخذتِ موقفًا بألا يجدك كلما احتاج إليكِ، لأنه يجب أن يعلم أنكِ إنسانة من روح وقلب وعقل يتألم، وإنكِ لستِ بلعبة يلعب بها كل هذا الوقت دون أن يكترث بأن هذا اللعب مؤلم لكِ، حتى وأن كنتِ مخطئة، لا يجب أن يكون العقاب بهذه القسوة..!

ابتسمت وهي تبكي وقالت:

- أتعلمين ماذا أشتهي الآن..؟!

- أعلم فأنا احتاجه بشدة لكي أدلل نفسي بعدما أرهقتني بهرولتك، احتاج إلى تناول الكريمة المثلجة بالبندق..!

- أنا استنشق عبير البسكويت الذي يصنع من أجله، لا أعلم كيف تهاجمني بقوة ولا يوجد محل واحد هنا يباع فيه تلك المثلجات..؟!

وفجأة أدارت ظهرها ورأت ما لم تتوقعه، فلقد جاء إليها، وأحضر معه المثلجات، لأن عيد ميلادها غدًا، فشعرت بأن الفرحة لمست قلبها مثلما تلمس الفراشة أوراق الشجر، تناولوا المثلجات معًا وتساقطت على ملابسهم، وتبتسم حينما تبتسم، وعينيها لا تفارق عينيه، ولا تتحدث لكي تحفظ صوته بداخلها، وجلست بجوارها لتأخذ رأيه في الأغلفة التي رسمتها، وتستنشق عطره، فكانت تشعر بأنه أتى لكي يودعها لا لكي يعود، تشعر أنه آن الآوان لكي ينفذ حكم الأعدام لحبهما..!

وفاجأة توقف عن الكلام حينما رأى ((الخاتم)) الذي أهداه له ملقى على الأرض، فالتقطه، فغمرتها السعادة أنه وجدها، فمدت يديها لكي تأخذه

منها، فسحب يديه بعيدًا، ثم وضعه أمام عينيها قائلًا:

- لقد ضاع منك الخاتم، كما ضعت أنا منكِ..!

- الخاتم لم يضيع مني، سقط مني سهوًا..!

- ضياع الشيء دليل على أنه لا يسوي شيء عندك، أنا لم أكن مهم لكِ يومًا، أنا أحببتك من كل قلبي، أم أنتِ فلا..!

- أنت مخطأ..!

- الذي يحب لا يترك من يحبه يضيع منه، أنا أتيت اليوم لكي أودعك..!

- أعلم هذا، ولكن أرجوك أترك لي هذا الخاتم..!

راقبت يديه وهو يمسك بالخاتم، وتفاجأت أنه وضعه في إحدى أصابعها، فدب الدفء في قلبها وانتشر في روحها ليصل إلى جسدها الضئيل، وقطعت وعدًا على نفسها بألا تنزعه من أصبعها مطلقًا، وأنها لن تسمح أن يضيع شيء منها مرة أخرى، وهمت لتخبره بذلك، ولكنه سبقها وقال:

- لا تنزعيه من أصابعكِ، لكي يدفئكِ حينما تشعرين بالبرد، ويشعرك بالأمان حينما تخافين، وتحكي له حينما تضيق بكِ الأرض، هذا الخاتم سوف يراعكِ دائمًا في غيابي..!

- سوف ترحل..!

- الذي يضيع لا يعود..!

- ولكن الخاتم عاد لي مرة أخرى..!

- أنتِ لم تجتهدي لكي يعود لكِ، فأنا من وجدته، وأنا من تركته لكِ، فحينما يضيع منكِ شيئًا يجب أن تجتهدي لكي يعود إليكِ، وليس مجرد بحث عشوائي لا ينتج عنه إلا المزيد من الضياع..!

رحل وأغلق الباب خلفه بقوة، فلمست الخاتم الفضي وهي تبكي فوجدته فقد بريقه، فهي لم تلمعه منذ فترة كبيرة، فأحضرت قطعة قماش وأخذت تلمعه، ولكن لم يعود كما كان.

زلابية وبطاطس

٥٣

في المساء، وبعدما انتهيت من غسل الأطباق بأعجوبة أعددت فنجانًا من القهوة، ثم جلست على الأريكة وأدرت التلفاز وأخذت أتنقل بين القنوات ولا جديد تحت سماء القاهرة، فالذي تشاهده في قناة تشاهد نفسه على القنوات الأخرى، فإما أن تبتلى وتشاهد المسلسلات التركية، أو تبتلى بهؤلاء الذين يصرخون في مواسير البالوعات فتشعر بطفح في كلتا أذنيك، وإذا تماديت في السماع لهم فسوف تصاب بالطفح الجلدي بالتأكيد.

فأغلقت التلفاز ونزلت إلى الشارع لكي استنشق الهواء العليل، ففيه عطر خاص يطلقه شهر سبتمبر، وله القدرة أن ينعش فؤادك، وتنضدت الأشجار على جانبي الطريق، وأنا أستأنف السير أسمع دبيب أقدامي، فالشوارع أصبحت شبه خالية لقدوم فصل الخريف ودخول المدارس، تشعر وكأن سكان الأرض غادروها لكي يقبعوا في المنازل ليجلدوا الكشاكيل ويلصقوا عليها هويتهم، فالمدرسة هي المكان الوحيد الذي يفعل بداخلها كل شيء وأنت تحمل هويتك، ولكن في حياتك وبين الناس يريدون أن يسلبوك هويتك وينسبوك إلى هويتهم، وتكون تحت طوعهم، وتنفذ أوامرهم، وتراعي ظروفهم، وتلتمس الأعذار، وتسأل عنهم، وتودهم رغم أنهم لا يسألون عنك، وأنت لن تفعل هذا وأنت تحمل هويتك، بل حينما تلقي بها في أقرب مكان للنفايات وتلصق على صدرك مبادئهم وأفكارهم..!

وأنا مشكلتي مع البشر أنني لم أتخلَ يومًا عن هويتي ومبادئي وأفكاري، دائمًا أخسر بشرًا كثيرين بسبب أني أتمسك بهويتي، وفي الحقيقة رغم الخسارة الظاهرة فإنني في الباطن أكسب، أكسب احترامي لنفسي أنني لم أكن يومًا مربوطة بحبل من عنقي وأسحب وأتبع كل من يسحبها.

وأنا أسير وأنظر أمامي شيء اعترض طريق بصري، عربة صغيرة حمراء تعلوها مظلة بيضاء، وعلى سطحها فتحات بها أوانٍ يملؤها زيت غزير، تمعنت قليلًا لكي أعرف ماذا يبيع هذا الرجل؟ فلم أعرف، لوح بالملعقة في الهواء وأخذ يغني ويرقص بها، فتلكأت قليلًا أمامه واختلست النظر ولكنه ما زال واقفًا

يدندن مع تلك الأغنية الصادرة من الراديو الأسود الصغير الذي بجواره، فاغتظت وتأففت وذهبت لكي اشتري فاكهة من المحل الذي أمامه، فملت قليلًا لكي أختار من التمر الأحمر أحسنه، فأنا أحب أن آكله في وقت العصاري وألقي بالنواة في الأرض على أمل أن تكون نخلة يومًا وتطرح تمرًا، ففي تلك النواة أرى أحلامي، أحلم يومًا أن تطرح كل شيء حلمت به وتمنيته، ولا تكون مجرد نواة ألقيت بها في أرض بور، ثم عدلت من استقامتي والتقطت أنفاسي، فاقتحمت صدري رائحة أعرفها وهي تعرفني، رائحة جذبتني لدرجة أني تركت البلح، وخرجت نحوها كالمسحورة أتتبعها فقادتني قدماي مرة أخرى أمام هذا البائع الذي حيرني في أمره، وابتسمت حينما عرفت ماذا يقلي؟ إنها الزلابية والبطاطس، فتسمرت أمامه وظللت أراقبه وهو يمسك بملعقة صغيرة ويأخذ بعضًا من العجين ويصنع منها كورًا صغيرة بكل سرعة وحرفية ويلقيها في الزيت، وكلما سقطت في الزيت وصنعت فقاقيع تصاعدت رائحتها أكثر وأكثر، وباليد الأخرى يلقي بالبطاطس في الزيت وكأنه عازف موسيقى متمكن من مقطوعته الموسيقية، فأزيز زيت الزلابية يحدث مع أزير زيت البطاطس أجمل مقطوعة موسيقية، تنفست من أعماق صدري لكي أملأ روحي من تلك الرائحة التي أحبها، رائحة قلي الزلابية والبطاطس.

حينما بدأ الناس يحتشدون عند البائع، أخذت تراودني خاطرة؛ هل اشتري علبة بها زلابية بالسكر وبطاطس بالمايونيز وأتناولهما وأنا أشاهد فيلمًا شيقًا، أم أكتفي بمشاهدة الناس وهم يشترون..؟!

فلاحظ البائع نظراتي المتلهفة للزلابية والبطاطس، فخيل له أني جائعة أو أشتهيهما، وأنا بالفعل لم أتناولهما منذ وقت كبير، في الحقيقة منذ آخر مرة رأيت فيها أصدقائي تقريبًا منذ سنتين، ومنذ ذلك الحين وأنا لم أشعر بدفء الزلابية والبطاطس في روحي..!

فنظر إلى البائع وقال لي بوجه بشوش:

- تفضلي زلابية يا فندم..!

ابتسمت له وأخذت بالعود الخشبي واحدة من الزلابية الساخنة ومضغتها ببطء، وحدث ما كنت أخشاه، اجتُرت الذكريات، فهي لها القدرة أن تلقي قلبك بحجر من الماضي في لحظة ثم تتركك تتكبد المعاناة وحدك، فإما أنك تعاني لأنك تحن لهذه الأيام وتعرف أنها لن تتكرر وإما تلعن غباءك وتصديقك لهم في الماضي، فتذكرت أمس وكأنها مشاهد متتالية من فيلم، مشاهد تختلف في الوقت ولا تختلف في المكان ولا في الزلابية والبطاطس، فكما كان يجمعنا المكان كانت أيضًا تجمعنا الزلابية والبطاطس.

أغمضت كلتا عيني ومع كل مضغة أتذكر أصدقائي، صدى أصواتهم وضحكاتهم ومزاحهم أسمعه في بهو قلبي، مشاهد تأتيني سريعًا وكأنها وميض، فهذه هبة كانت صديقتي المقربة وكانت تشاركني أكثر شيء أحبه في الحياة وهو القهوة، وهنا كنا نتذوق نكهة جديدة من القهوة «قهوة بالبندق»، أعجبتها كثيرًا وأنا أخبرها أنها لم تعجبني فأنا لا أحب أي نكهة تشاركني القهوة التي هي عشقي الأول والأخير، فتضحك وتحاول أن تسكب القهوة على ملابسي فأصرخ والناس تنظر إلى باستنكار.. وهنا يجلس بجوارها هشام أخوها ينظر إليها بوجه ممتعض بسبب أنها تريد سكب القهوة على ثيابي، فيمسك الكوب لكي يسكب الماء عليها، فتصرخ وتخبره إنه سوف يقوم بعد قليل لكي يشتري الزلابية والبطاطس بمفرده دون أن تذهب معه، فيأتي محي وهاجر على الصراخ محملين بكل ما لذ وطاب من الشيكولاتة، وما إن يبدآ في توزيع الحلوى حتى نجد رأفت يهرول لكي يلحق أي شيء من الشيكولاتات، وما إن يصل إلى الطاولة إلا وقد نفدت جميعها فيغضب ويتوعد إنه حينما تأتي الزلابية والبطاطس سوف يأكلها كلها ولن يترك لنا شيئًا، وبعد قليل يقوم هشام و هبة لكي يشتريا الزلابية والبطاطس ونظل نتحدث ونثرثر ونضحك، ونهلل حينما نري هبة وهشام يحملان علبة الزلابية والبطاطس، وما إن ترسو العلبة على الطاولة وتفتح ينهال عليها الجميع، ونظل جميعًا نتعارك من أجل الحصول على أكبر كمية منها، ونتبارز بالأعواد

الخشبية ويشك بعضنا بعضًا، وهبة تتوعد لهشام إذا لم يكف عن شكها في يديها، بأنها سوف تشكه في إحدى عينيه وتعمل له عاهة مستديمة يبقى على أثرها من دون زواج، فيخبرها بأنه شاب وسيم والبنات تعشقه حتى لو من دون عينين، فتغتاظ منه فتشكه في وجنته فيصرخ ويعضها من إحدى إصبعيها، فنضحك جميعًا ونشهق من شدة الضحك.

أفقت على صوت البائع وهو يقول لي:

- هل أعجبتكِ يا فندم، أملأ لكِ علبة بالزلابية وبطاطس..!

نظرت إليه نظرة بها لمعة حزن، هذه اللمعة التي تسبق البكاء فكل شيء يحدث يسبقه شيء يثير من حدوثه، كل شيء في الحياة له سبب ونتيجة، فصداقتنا قبل أن تنتهي حدث وأننا تخلينا عنها جميعًا لأن هناك لحظة إذا فكرت بنفسك فقط، وكذبت، وجرحت، وكسرت، وبعدت، كأنك زرعت شجرة وأهملتها حتى ذويت مثل أوراق الخريف وتناثرت في مهب الريح، وكلما تبعثرت ازدادت صعوبة العودة مرة أخرى، حتى وإن عادت لن تكون كما كانت لأن أثناء البعثرة تضيع أشياء وأشياء وتتبعثر هنا وهناك، وحينما نضيع نكون ضللنا الطريق، وهذا هو الشيء الذي جعل ما حدث يحدث، وهو أننا ضللنا الطريق حينما لم نعد نأكل الزلابية والبطاطس سويًا..!

صمتٌ وانسحبت عيناي بهدوء عن الزلابية والبطاطس، وجريت سريعًا بعيدًا عن البائع، ألهث ولكني ما زلت أشم رائحة الزلابية والبطاطس، والرائحة تعصف بالذكريات في روحي، والذكريات لا ترحمني بل تعتصرني; فالذكريات هي الصورة، وهي الكلمة، وهي الفرحة، وهي الضحكة، وهي المأكولات، وهي المكان الذي ضمنا وضم كل هذا معنا، وأكبر مصيبة في الذكريات أنها لا تموت، بل تظل حية بداخلنا رغم كل شيء، تظل في صندوق مغلق بداخل القلب يشبه «صندوق راقصة الباليه الموسيقي» ويفتح الصندوق ليس بموافقتك بل رغمًا عنك، وبمجرد أن يفتح تعتلي راقصة الباليه قلبك وتعلو الموسيقى، ومع كل نغمة وكل رقصة تدور بك الذكريات فتشعر بأنك

غرقت في دوامتها، ولا تتوقف الراقصة عن الدوران ولا تتوقف الموسيقى إلا حينما يقرران ذلك.

ركبت سيارتي وقدتها بأقصى سرعة لكي أبعد بعيدًا، ألهث وقلبي ينتفض، والفتاة ترقص، والموسيقى تعزف، وأنا أسمع صدى أصواتهم في كلتا أذني، وأراهم أمام عيني كأنهم أشباح، أسمعهم يقولون لي:

- كلي الزلابية والبطاطس قبل أن تبرد، لو بردت سيفقدان طعمهما..!

بالفعل فإن ما يبرد يفقد مذاقه، مثل صداقتنا بردت، ولم يعد لها مذاق ولم يعد لها وجود..!

زدت من سرعتي أكثر، وفتحت نافذة السيارة عن آخرها، وأدرت الراديو لكي يعلو فوق صوت الفتاة والموسيقى، فوجدت فيروز تغني، فقررت أن أغني معها بصوت عالٍ..!

انتهت فيروز من الغناء، وانتهت الموسيقى والفتاة عن اللف والدوران وأغلق الصندوق، ولم أعد أشم رائحة الزلابية والبطاطس..!

غزل البنات

٦١

فتاة مفعمة بالحيوية في الثلاثين من عمرها، وعندما تراها تجدها طازجة مثل الفاكهة، وعمرها لا يتعدي الأربعة عشرون عاماً، تحب الحياة، وتعيشها بقلب طفلة مدفونة بداخلها، وبعقل وجسد امرآة، ولولا إنها تزوجت في سن صغير، وتحملت المسئولية مبكرًا، لكانت هيئتها مثل قلبها، فالزواج والإنجاب يغيرون من هيئة أغلب النساء، وعلى الرغم من ذلك فهي تحافظ على وزنها، ولم تستسلم يوماً إن تتحول هيئتها إلى وحشٍ كاسر من الإنجاب وتناول الطعام، وتمقت الروتين، فدائمًا تتعجب من هؤلاء الذين اقتصرت حياتهم على الأكل والشرب والعمل والنوم، ترى إن الله خلق الإنسان ليكون له رسالة في الحياة، وحلم لكي يحققه، لم يخلق الله للإنسان عقل ليختزله في اللعب أو لأستخدامه في النفخة الكذابة، ينفخ في نفسه، ويفخم فيها، ولم يخلق الله للإنسان يدين وقدمين، ليختزلهما في التمطع على الكنبة، وتناول المكسرات.

ولذلك عانت الفترة الماضية، وأصابها صداع من الألم، ومن شدته قسمها إلى نصفين، وكل نصف فيها يصارع نصفها الآخر، حائرة بين أهلها وبيتها وبين أحلامها، وتحولت حياتها من شمس الأحلام الساطعة إلى غيوم طغي على حياتها بأكملها، فالجميع يشتكون من تقصيرها؛ أمها وأبوها وزوجها حتى ابنها، لأنها تنشغل عنهم أحياناً، تراهم مبالغين، على الرغم من إدراكها بتقصيرها لانشغالها بأرض أحلامها، ولكن ألم يجدر بهم إن يشعرون بما تشعر به من معاناة، والحيرة بين حقوقهم وبين حقوقها..!

تذكروا حقوقهم ونسوا حقها عليهم، بأنهم يقدرون بأنها تلهث وراء أحلامها، وإنها تريد أن تتذوق طعم النجاح، وترى نفسها بين النجوم، فيشاهدها الناس فيتأثرون بها وتتأثر بهم، لماذا يحملونها فوق طاقتها ..؟! لماذا لا يلتمسون لها العذر..؟!

عرفت الآن معنى المقولة ((ومن الحب ما قتل)) فأحياناً حب من حولنا يُقتلنا وهم لا يشعرون، حب فيه تملك، كل طرف يريد أن يقطع جزءًا

ويأخذه لحسابه، دون أدني تفكير هل هذا القطع مؤلم أم لا..؟!
فأصبحت سريعة الإيقاع مثل أغاني الراب، التي من سرعتها لا تفهم معظم كلماتها، كانت تفعل ذلك في عجلة من أمرها ظنًا منها إنها بذلك سوف تقوم بوجباتها على أكمل وجه، ولن يعاتبها أحدًا بعد ذلك، فأصبحت لا ترى ولا تسمع إلا صوت سرعتها، فالسرعة أصبحت شيء أساسي في حياتها..!
فشعرت بغثيان، ودوار يجتاح عقلها، وبتقلصات في قلبها، وضيق يضغط على كامل حياتها وأحلامها; ضيق يجعلها تختنق، فتشعر برغبة ملحة في أن تلقي بكل ما تحمله من ثقل، أن ترحل عن أحلامها، وعن كل شيء تحبه، لكي تشعر بأنها خفيفة مثل الفراشة، مثلما كانت قبل أن تملك حلماً..!
فألقت بجسدها على هذا الكرسي الخيرزان، وكأن هو الوحيد الذي يشعر بألمها من كثرة احتضنه لها، صمتت لكي يصمت تفكيرها، لكي لا تتذكر شيء آخر فتقوم تلهث وراءه بالحذاء الرياضي، فهي لا تنزعه من قدميها سواء في البيت أو في الشارع لكي تتمكن من الجري، فأغمضت عينها قليلًا، ولم تتحرك أو تهتز وكأنها جثة هامدة، فسمعت صوتًا يتخلل روحها، وينفذ إلى قلبها، وأضاء نفق أحزانها، ففتحت عيونها، وحركت جسدها، فاهتز بها الكرسي فرحاً بأنها مازالت على قيد الحياة، فتحت الستائر بقوة لدرجة إن أحدهما تمزقت، لكي تتأكد من صاحب هذا الصوت، فرأته يشدو بزمارته الصفيح التي تشبه البوق، أنه بائع غزل البنات، يسير بجلبابه الرمادي محملاً بكل ألوان غزل البنات الزاهية، فهي تعشق غزل البنات منذ صغرها، وتحب أن تأكله في بطئ لكي تشعر بمذاقه، تمقت أن تأكله سريعاً، وتبتلع عصارته، ولا تشعر بمذاقه القطني السكري في فمها..!
نادته بأعلي صوتها، فكان صوت زمارته منسجماً مع صوتها، فشعرت بأنها تغني وهو يعزف، أنزلت السبت، وتدليت بجسدها النحيل، والفرحة تفوح منها، عندما تراها يخيل لك إنها طفلة لم تتعدي الرابعة، وإنها ليست امرأة في الثلاثين من عمرها.

نظر لها بائع غزل البنات وقال بصوته الأجش:
كم تريدين من غزل البنات؟
خمسة..
خمسة يا هانم..!
عشرة..!
آخر كلام خمسة أم عشرة؟
عشرة..!
طلبت الكثير من غزل البنات، فهي لم تأكله منذ فترة كبيرة، وضع البائع غزل البنات في السبت، وأخذ النقود فوجدها أكثر بكثير من ثمن غزل البنات، فابتسم لها، واحتضن النقود، وعزف لها على زمرته موال، قهقهت من قلبها، وفتحت كيس غزل البنات، وبدأ تأكله بهدوء لكي تستمتع بمذاقه، فيفوح منه رائحته السكرية.
ظلت تراقب المارة بعيونها، وهي تأكل غزل البنات، وسرحت مع ابنها وهو يلعب مع أبناء الجيران، فكان يجري وكاد أن يسقط، فنهضت من مكانها:
لا تجري سريعًا لكي لا تسقط على الأرض..!
ماقالته رن بداخلها، وعرفت الآن مشكلتها..! عرفت ما الذي جعلها تصل إلى هذه الآلام والأحزان والتعاسة إنها:
السرعة، إنها تحولت مثل الآلة سريعة الإيقاع..!
عرفت إن السرعة أفقدتها الاستمتاع بكل شيء، أفقدتها الخشوع في صلاتها، والإحساس بالنوم الهادئ، والاستمتاع بطعم البيض المقلي مع الجبن مع التوست المحمص، وأصبحت تمضغه لكي تشبع جوعها فقط، أفقدتها الاستماع بتمشيط شعرها التي كانت تنوع في تسريحاته، وأصبحت تطعم ابنها وتلبسه دون أن تلتفت له، وزوجها تجلس معه مثل الحاضر الغائب قلبها معه وعقلها مع أحلامه، حتى أحلامها من أقلام ودفاتر وكتب، تحولوا إلى مجرد أشياء مرصوصة في عقلها، ولا تشعر بهم في قلبها، لأن قلبها ضاق

من سرعة نبضاته، أفقدتها السرعة أن تتذوق الحياة..!

ارتدت من صوت تفكيرها إلى صوت دقات باب الشقة، نهضت وهي تأكل غزل البنات، فوجدته زوجها وأبيها وأمها وابنها, يبتسمون لها ويحملون في أيديهم غزل البنات, فاندهشت فقالت:

- هل ما زلتوا تتذكرون أني أحب غزل البنات..؟!
- لم ننسى يومًا ما تحبيه..!

حضنتهم بكل ما أوتيت من قوة، فلقد كانت تشتاق لهم، تفكر أن تفضفض لهم بما تحمله من أعباء، فذلك أفضل من دفن ما يحزنها في قلبها، فيحفر بسنه الحاد نفق، تتولد فيه الآلام والأحزان، جلسوا جميعًا يشاهدون التلفاز، وهي مازلت تأكل غزل البنات، وفاجأة شهقت، نظر إليها الجميع، وقالوا في صوتًا واحدًا:

- لا أحدًا يجري وراءكِ، كلي غزل البنات على مهلك..!

فقالت بصوتًا خافتًا:

- في الحقيقة، كلكم تجرون ورائي..!

طعم البيوت

أخرج المفتاح من جيبه، وفتح باب الشقة ويداه ترتعشان وعيناه غارقتان في بحر الخوف، مع أنه اعتاد خوض المخاطر ولكنه ما زال يخاف..! يخاف من الفئران والحشرات، أو ربما هناك خوف آخر يحاول أن يهرب منه فيقنع نفسه أنه خائف منهم، فالشقة مغلقة منذ سنة، وبالتحديد منذ وفاة والده، وأما هو فكان يعمل رسامًا في روما، فبعد أن فشل في إيجاد فرصة لعرض لوحاته الفنية في مصر أو الاعتراف به كرسام، شعر بأن الرسم إثم عظيم يجب أن يتوب منه، خصوصًا بعد السخرية التي كان يتلقاها من أبيه كلما أحب أن يأخذ رأيه في رسوماته:

- لقد تركتك تلتحق بالكلية التي حلمت بها دومًا، ولكن هذه الرسومات الغريبة المريبة لن تؤكلك خبزًا..!

دخل الشقة وهو يترنح ثم أضاء جميع الأنوار وألقى نظرة سريعة، وبعد أن تأكد أنه لا يوجد شيء، أغلق الباب ووضع حقيبته، وتقدم بخطوات هادئة ولكن يسمع دبيبها من كثرة ذرات التراب التي تحتك بحذائه، فبعد أن والده توفي أصبحت الشقة كالمقبرة، وهو أول زائر لهذه المقبرة، أكمل سيره ورجلاه ترتجفان، وشعر فيهما بطنين كطنين النحلة، وشعر بروع في قلبه، فهذا ما كان يخافه بالفعل؛ أن يرى هذا الركن «ركن الراحة» هكذا كان يسميه يوسف حيث كان يستريح فيه من أعباء الحياة، ويحتسي مع والده القهوة، ويتجاذبان أطراف الحديث، ويلعبان الطاولة، فهذا الركن مصمم على الطراز التراثي، به منضدة صغيرة خشبية به تعشيقات، وكرسيان مكسيان بالقطيفة البيضاء، فسحب أحد الكراسي وجلس فوجد نظارة أبيه والجريدة وورقة شيكولاتة وفنجان القهوة، فأمسك الجريدة فوجد تاريخها هو نفس اليوم الذي توفي فيه، ووجدها مفتوحة على إعلان فوزه في مسابقة الرسم في روما بأحسن لوحة عن الأمومة، ثم ارتدى نظارة أبيه، وفي لمح البصر عاد للحظة التي سبقت سفره وهو واقف على باب الشقة لكي يودعه، تذكر تلك النظرة الذابلة والدموع الخفية التي كلما حاول أن يخفيها كانت تفضحه

هذه النظارة «نظارة القراءة» فعدستاها كما توضحان الحروف وتكبراها فهي أيضًا توضح خفايا العينين، فحضنه بقوة لكي تتشبع روحه من روح ابنه ويشعر بأنفاسه ودفئها، ورغم قوته فإنه انهار كما ينهار المبنى من شدة الوهن، وبكى، فابنه هو سنده في هذه الدنيا، شعر في سفره بأن الأرض تسحب من أسفل قدميه، فقال وصوته تخنقه الدموع ويضربه في كتفه:

- لا تغضب مني إذا سخرت منك يومًا، تأكد أني مؤمن بك دومًا، ولكن يا بني بلدنا أرض بور لتحقيق الأحلام، وأنا كنت خائفًا عليك، يا رب تحقق كل أحلامك وتصبح أحسن رسام في الدنيا..!

تنفس وشعر بالدفء قليلًا، فمنذ أن سافر إلى روما وهو يشعر أن كل شيء أصبح باردًا، أما الآن فهو في حضن الوطن وحضن بيته وحضن أبيه، ثم أمسك بفنجان القهوة فوجد على حافته آثارًا لحبات شيكولاتة جافة -فلقد كان يحب تناول القهوة مع الشيكولاتة- ووجد به قليلًا من القهوة ملتصقة بجدار الفنجان، فمن الواضح أنه وافته المنية قبل أن يكملها، وهو في الغربة كان يشتاق كثيرًا أن يحتسي معه القهوة، فالقهوة مع أبيه لها مذاق آخر..! حلاوة لم يجدها في أجود أنواع القهوة ولا أرقى الأماكن في روما، كان يحلم بأن يأتي هذا اليوم ولكنه لم يأتِ..! فالغربة كالتروس تلف من دون توقف، ولم يستطع المجيء لرؤيته قبل وفاته حتى المأتم لم يتمكن من حضوره، وتلقى خبر وفاته عبر التليفون، وشعر في لحظة أنه قد أصابه الشلل وأصبح عاجزًا، ولم يتمكن إلا من البكاء والنحيب وتكسير علب الألوان الزجاجية، وانتهى الأمر أنه تقوقع ونام بعد أن أنهكه البكاء.

كم يكره الغربة..! فهي مثل اللص الذي يسرق الإنسان، ويا ليتها تسرق بعض المقتنيات، بل إنها تسرق العمر في لحظة من أجل أن تحقق لك أحلامك، فلا يوجد شيء من دون مقابل..! كل لحظة محسوبة بالورقة والقلم، لم تكن الغربة يومًا عبثًا، بل هي جادة وقاسية لدرجة الصلابة، فإذا فكرت أن تستخف بها قصمت ظهرك..!

ظل يلعب بفنجان القهوة وينظر فيه ويبتسم وكأنه يبتسم لأبيه أو لعله يودعه، فلقد كان آخر شيء يلمسه قبل أن يتوفى، ثم أفاق على جرس هاتفه المحمول، فأخرجه من جيبه ببطء، ووضعه على أذنه بكل وهن وقال بصوت يشبه الفحيح:

- آلو
- هل وصلت إلى البيت؟
- من..؟!
- صديقك محمد، هل فقدت الذاكرة..؟!
- محمد..! أنا وصلت إلى البيت، أين أنتم..؟!
- حمدًا لله على سلامتك، أنا وأحمد سوف نمر عليك الآن..!
- افتقدتكما كثيرًا، أنا في انتظاركما..!

نهض يوسف والفرحة لم تسعه، رغم أنه ما زال حزينًا، فهو يؤمن أن الشعور بالفرحة ليس معناه أن الحزن رحل عن قلبه، فالحزن ليس مستأجرًا وإنما مالك..! فهذان صديقاه منذ الطفولة لم يتفرقوا إلا في الكلية، فمحمد وأحمد دخلا «معهد الموسيقى العربية» ولم يتخليا عنه في يوم من الأيام، حتى يوم وفاة أبيه حضرا مراسم الدفن وأقاما المأتم كأنه موجود بالفعل، وكانا يزوران أباه من آن لآخر، لأن هذا كان يسعده ويسعد أباه، ودائما كان يقول لهما:

- أنا أحبكما لأنكما من رائحة ابني..!

ذهب إلى حجرته، وفتح الدولاب وحاول أن يرتدي أي شيء من ثيابه القديمة التي تركها فوجدها أصبحت لا تلائمه، فهو قبل أن يسافر كان سمينًا، وبعد أن سافر مارس الرياضة في أوقات فراغه لكي يستمتع بصياح الناس وهم يتنافسون في ممارسة الرياضة، وصوت الموسيقى الصاخبة تعلو على صوته الداخلي ، فدائمًا كان يشعر بأنه خاوٍ من داخله، خواء يخيفه في كثير من الأحيان، لدرجة أنه يشعر بأن جسده من شدة البرودة استقل عنه،

ويتحسسه من آن لآخر لكي يتأكد أنه ما زال موجودًا.
فتح حقيبته وأخرج منها قميصه الكاروهات وبنطلونه الجينز، وبدل ثيابه ثم نظر في المرآة لكي يصفف شعره الأسود الناعم، ثم انتبه إلى وجومه، فوضع المشط على المنضدة ثم ابتسم ابتسامة خفيفة أشاحت بغيمة الحزن عن وجه قليلًا، وقال محدثًا نفسه:

- افرح..! أنت في مصر وصاحباك قادمان، أنت لست في روما الآن..!

وفجأة سمع أصوات صديقيه وهما يهللان:

- حمدًا لله على السلامة يا صاحب أجمل ابتسامة يا بيكاسو الشرق..!

فتح باب الشرفة وهو يضحك:

- فضحتوني، منكم لله..!

سمع أصوات النوافذ وهي تفتح على مصراعيها والجيران يهللون ترحيبًا بمجيئه، والدفء يكمل سيره في جسده وسلم عليهم بابتسامته المعهودة التي تشعر أنها من ضمن ملامحه، ووعدهم إنه سوف يحقق لهم أمنيتهم ويتناول الطعام معهم كما كان يفعل دائمًا، وظل صديقاه يطبلان على السيارة فرحين بعودته، فنزل لهما وهو يشعر بخفة لم يشعر بها منذ سنوات..!

بكى عندما رآهما واحتضنهما بكل قوة والدفء يزيد ووصل إلى جميع خلاياه، وكان يسمع تسارع نبضات قلبيهما من فرحتهما كأنها مقطوعة موسيقية، وسمع صوت قلبه يحدثه:

- ليتك لم تسافر..! ليتك ماتت أحلامك ولم ينقضِ عمرك بعيدًا عن وطنك وأهلك وأصدقاءك..!

ركبوا السيارة وانطلقوا وظلوا يتحدثون ويضحكون وسألهما:

- إلى أين نحن ذاهبون..؟!

فقال أحمد وهو ينظر إليه في مرآة السيارة:

- خمن..؟!

- لا أعرف..!

فرد أحمد ومحمد في آن واحد:

- حي الحسين..!

- كيف علمت أني أريد الذهاب إلى هناك..؟!

- هل نسيت أن «حي الحسين» أجمل مكان كنا نجتمع فيه مع أصدقاؤنا..!

ابتسم وهز رأسه وصمت قليلا

هو لم ينسَ..! ولكن في الغربة يجب أن يتناسى، فكلما اشتاق توجع، وهو كان يشتاق كثيرًا، ومن شدة الألم كان يدفع أجمل الأماكن والذكريات خارج قلبه لكي يتخلص من عناء الحنين الذي لا يتوقف ولا ينتهي بداخله..!

فتح نافذة السيارة عن أخرها لكي يملأ صدره من الهواء، فهذا الهواء الملوث بالأدخنة أحب إليه من هواء الغربة النقي، ففي هذا الهواء يشعر بأنه يتنفس..! بأنه حي لأنه في وطنه، ثم لمحت عيناه «القلعة» فرآها كأنها جوهرة، فلقد قضى فيها أجمل أيام الطفولة، فلقد كانت معظم الرحلات المدرسية إليها، أغمض عينيه وابتسم وكأنه يحاول أن يسمع صدى تلك الضحكات «ضحكات الطفولة».

وبعد نحو ربع ساعة وصلوا إلى «حي الحسين» والسيارات تحارب من أجل أن تجد مساحة للانتظار، وظلت السيارة تعلو وتهبط بهم وكأنها تعتلي جبلًا، وظهر هذا الرجل المتجهم والصافرة لا تفارق شفتيه، وساعدهم أن يجدوا مكانا في مقابل ١٠ جنيهات.

فتحوا حقيبة السيارة وأخرجوا منها «آلة العود»، فلقد اعتادوا أن يعزفوا ويغنوا عندما يأتونا إلى هنا، ثم أغلقوا السيارة وساروا على أقدامهم إلى أن وصلوا إلى «قهوة زينب خاتون»، وبمجرد أن رأى يوسف الكراسي الخشبية المفروشة بالقماش المنسوج الملون والمنضدة المفروشة بالمفرش المنقوش - الذي يشبه القماش الذي ينصبون به الخيام في رمضان - تنفس بعمق، فهو لم

يتنفس منذ زمن بعيد هكذا، وحاول هو وأصدقاؤه أن يجدوا مكانًا، فالمكان مزدحمًا وتسيطر عليه غيمة من الدخان، فالبعض يدخن السجائر والبعض الآخر ينقث دخان الشيشة، وظل يبحث عن «عم طه» الذي كان بمجرد أن يراهم يرحب بهم ويبحث لهم عن مكانًا فارغًا، ولكنه لم يجده، فسأل أحمد ومحمد عنه فأخبراه أنه توفي، فسكنت أنفاسه مرة أخرى لهذا الخبر، وفي دقائق جاء صبي وساعدهم على الجلوس، فظل يراقب الناس وهو يضحكون ويتحدثون ويأكلون ويشربون، لقد كان يشتاق لهذا الضجيج، يشتاق أن يسكن كيانه، فما أبشع أن يسكنك الهدوء، ليس هدوء النفس ولكن هدوء الغربة، ثم جاء الصبي:

- ماذا تشربون؟ ساقع.. سخـ..

فقاطعه يوسف:

- شاي بالنعناع..!

فضحك أحمد وقال وهو يمسح نظارته:

- تشعرني وكأنك لم تشرب شايًا في روما..!
- لا يوجد مثل شاي مصر..!
- أنت تعشق الفقر..!
- أنا..! اطلب مشروبك ثم نتحدث بعد ذلك..!
- أنا أريد قهوة وشيشة، وأنت يا محمد؟
- قهوة.

نظر أحمد إلى يوسف لكي يكملا حديثهما، فقال يوسف وهو يحاول أن يسمع الموسيقى الصادرة من الشرفة التي أمامه والتابعة للمقهى:

- لماذا تراني أني أعشق الفقر يا أستاذ أحمد..؟!
- لأنك تحن للشاي المصري وأنت في بلاد الفرنجة..!
- إذا سافرت وطوفت حول العالم، فلن تشعر بروحك تتنفس إلا وأنت في بلدك..!

- يكفي أننا نعمل بالساعات ليلًا ونهارًا ونأخذ الفتات، ويغنون عن تحقيق الأحلام في بلاد تخنق صاحب الحلم، أخبرني بشيء واحد يجعلني أتمسك بها..!

- طعمها..!

عاد أحمد بظهره إلى الوراء ومط حاجبيه وضحك ساخرًا منه:

- طعم..! هل أنت تتحدث عن مصر..؟! ولماذا العجب..؟! فأنت تعيش في روما ولا تعرف شيئًا عنها وعنا يا بيكاسو..!

- الغربة طعمها طعم المـرارة، ورائحتها رائحة القبور، وصوتها صوت الصمت، أما مصر فـجدعنة الشعب المصري، وضحكاتهم الدافئة رغم همومهم، وصوت الأطفال وهم يلعبون الكرة وعندما تصطدم بقدمك تشاركهم اللعب، ورائحة الجو في سبتمبر عند دخول المدارس، ورائحة الجو في رمضان وصلاة العيد، ووقت العصاري، وسكب الماء من أجل الرزق، وإذا لمحك جارك من شرفته يظل يتوسل إليك لكي تشرب معه الشاي، وتشاهدا المباراة سويًا، كل هذا يجعل للبيوت طعمًا «طعم البيوت» لن تجده إلا في مصر..!

جاء الصبي ووضع الشيشة على الأرض، ثم وضع على المنضدة البراد الصاج الأبيض الصغير المنقوش بالأخضر، وكوب الشاي الزجاجي الصغير، وكوبًا به أوراق النعناع، وسكرية، وبمجرد أن رأى يوسف النعناع أخذ ورقة لكي يستنشقها، فشعر بالبراح، براح يجعله يتمنى أن يطير في الحال، ووضع كل النعناع وملعقة سكر، وبدأ يقلب الشاي ويراقب السكر وهو يلف مثل راقص التنورة، وارتشف رشفة وبدأت تسري حرارة الشاي في جسده، فأغمض عينيه وقال بصوت مرتفع:

- رائع..!

فضحك أحمد ونفث الدخان في وجهه:

- ألم أقل لك أنك تعشق الفقر، وما دمت تحب مصر، لماذا سافرت

إذن..؟!

- لكي أحقق أحلامي، ولقد حققتها وأصبحت رسامًا كبيرًا وأقيم معارض والناس تنبهر بأعمالي، لكني أمام هذا خسرت أجمل لحظات عمري، لحظة رؤيتي لأبي وهو يقرأ القرآن، ولحظة شراء الطعمية والخبز الساخن الذي تشعر برائحتهما المميزة في يوم الجمعة، وحينما تضيق بي الدنيا ويتسع صدره لي، ودفئه الذي يهدئ من غليان روحي، وقبل أن يتوفى لم أكن بجانبه لكي أودعه. وأنا أمام تحقيق أحلامي كنت أموت في اللحظة مائة مرة..! الغربة تميتك..! تميت أجمل لحظات حياتك، أفهمت..؟!

- حينما أسافر أقرر إذا كان حديثك هذا صحيحًا أم لا..!

بدأ يضجر يوسف من أحمد فلاحظ محمد، فقال وهو يخرج «العود» من الحقيبة السوداء الجلدية:

- بيكاسو ألم تفتقد غنائي..!

- بالتأكيد أفتقده..!

بدأ أحمد يعزف، ومحمد يغني أغنية تتغزل في المكان، وردت إلى يوسف روحه التي لم يجدها ألا في حضن حي الحسين قلب مصر، وأحتل الدفء قلبه مرة أخرى; هذا الدفء الذي لم تفلح مدافئ روما أن تبعثه..!

ريحان

رن الهاتف بإلحاح يأبى أن يصمت، ففتح عينيه بوهن يتفقد سقف حجرته المتشققة كوجه امرأة عجوز، وحدقات عينيه زائغة; وكأنها تبحث عن شيء فقدته، ثم تحركت أذنيه كالرادار تجاه الصوت، فوضع كلاتا يديه عليها لكي يعرف هل هو في حلم أم في علم..؟! فانفرجت أساريره عندما تأكد أنه يقل حينما يضع يديه ويزيد حينما يبعدهما, فهرول نحو الهاتف المعلق على الحائط، وقفز لكي يصل إليه ولكن باءت جميع محاولاته بالفشل; فأحضر كرسي وصعد عليه كطفل ينتظر شيء منذ فترة كبيرة، وقبل أن تنتهي الرنة الأخيرة رفع السماعة، و تنهد تنهيدة فتحت معها بوابة سجنه قليلًا، وتسلل شعاع نور رأى ظله على أرض قلبه.

- من؟ قالها وهو يبتسم من أعماق قلبه
- أنا حياة يا خال، افتقدك كثيرًا..!
- أنا زعلان منكِ لأنكِ لا تتصلي بي..! قالها وهو يسرح شعره الأشعث بيديه من أسفل قبعته الصوفية، ويمط سرواله إلى أعلى وكأنها تراه.
- كنت أذاكر لكي أنجح بمجموع كبير في الصف الثالث الإعدادي، واستطيع أن أكون يومًا ما مذيعة راديو مثلك ومثل شهر زاد..!

أغمض عينيه حينما سمع اسم شهر زاد وصعق قلبه بصاعق كهربائي، وأوشك أن يراها أمامه; ولكنه فتح عينيه سريعًا لكي يمنع نفسه أن يرى ما فات، فهو يتألم ويتعذب بسبب العيش فيما مضى، يشعر بأن حياته دفنت معهم حينما رحلوا عنه..!

ألقى نظرة على أصيص الريحان المنتشر على سور الشرفة، فلقد زرعه لأنه يذكره بـ شهر زاد، فوجده كالهشيم، ومتبعثر على الأرض يحركه الهواء كيفما يشاء، مثله تمامًا تحركه الأيام كما يروق لها، لم يعرف بعد كيف له أن يولد من جديد؟ بعد أن مات والديه وحبيبته.

بللت الدموع أطراف عينيه، وأعتاب جفونه تحولت إلى سدود وأوقفت دموعه عنوة، كم يتمنى لو يستطيع أن يحطم تلك السدود وتسيل دموعه..!

أفاق على صوت ((حياة)) وهي تسعل، فانتصب جسده بعد أن ركن قليلًا على الحائط، ونظر بعينيه إلى سماعة التليفون:

- هل أنتِ مريضة..؟!
- أبدًا يا خال، أنا وأمي والخال حسن سوف نأتي إليك اليوم..!
- هل اليوم أول يوم رمضان..؟!
- اليوم عيد شم النسيم..!
- كيف ونحن في شهر مايو..؟!
- نحن في شهر أبريل..!
- لا تتأخروا، وأنا سوف اشتري الرنجة والفسيخ والبصل.

نزل من على الكرسي، وسقط من سرعته، وسبقته روحه قبل جسده إلى الدولاب، فأخرج بنطلون قماش كحلي وسترة صفراء، وأخذ نفسًا عميقًا لكي يشفط بطنه ويتمكن من غلق زرار البنطلون; فتمزق خيوطه وطار في الهواء، أما السترة فظلت عالقة في رقبته، فهذه الملابس كان يرتديها أيام الجامعة وأصبحت لا تناسب جسده الذي يشبه شوال البطاطس، ظل يبحث في الدولاب عن ملابس أخرى فلم يجد أي شيء يناسبه، فتتطلعت عينيه إلى الحقيبة السوداء التي تسكن أعلى الدولاب ويكسوها الكثبان الترابية، فأنزلها ووضعها على الأرض لعله يجد في ملابس أبيه ما يناسبه، مسح الحقيبة بخرقة قديمة ثم فتحها، فابتسم ابتسامة دافئة كشفت عن أسنانه المصفرة بسبب إدمانه للقهوة، وجاث على ركبتيه وأخرج الطوابع القديمة فهو يحب جمع الطوابع لأنه يحب صور الملوك; يحب فيهم الجمال والأناقة والزمن الذي عاشوا فيه، ثم لمحت عينيه صور حيوانات جمعها من مجلات متنوعة، فهو يحلم أن يسافر إلى جميع أنحاء العالم لكي يشاهد الحيوانات النادرة.

احتضنت يديه دفتر وبمجرد أن فتحه جلس بدون وعي، فهذا الدفتر كتبت فيه شهر زاد عن أجمل أيام حياتها، ولكن لم يشهد اللحظات الأخيرة هل

لأنها ..؟ توقف عن التفكير وعن طرح الأسئلة، لا يريد أن يتذكر، أنه يتمزق من الألم، فبدونها انطفىء العالم وصمت وكأنه أصابه الصمم..!

أدخل قبعته الصوفية بداخل رأسه أكثر، ووجل قلبه حينما دق جرس الباب، فارتدى سترته الصوفية وهرول وكأنه ينتظر أحدًا عائدًا من بلاد بعيدة.

رأى حياة بفستاها اللبني وشعرها الكستنائي المنسدل على كتفيها وكأنها سندريلا، تبتسم له ابتسامة أعادت النور لنظرات عينيه وشفتيه بعد أن دام الظلام لشهور كثيرة، جاث على ركبتيه واحتضنها بقوة فشعر بأنه يلف العالم في لحظة، ورحب بأخواته شيماء وحسن:

- سوف اشتري الرنجة والفسيخ، حالًا..!
- سوف تشتريهم حياة، لأننا نريد أن نتناقش معك في موضوع هام..!

قالتها شيماء وهي عاقدة الحاجبين

أخرج المحفظة من جيبه، وقبل أن يخرج الفلوس سبقته شيماء، وأخرجت فلوس كثيرة وسحبت منهم مائة جنيه ، دخلت هي وحسن حجرة عادل، وظلت تتفحص المكان باشمئزاز، فرائحة الحجرة كريهة، وجدرانها أصبحت باهتة اللون وتساقطت معظم دهانه، والسرير ملقى عليه ثياب كثيرة، وشبشب مبلل عميق من المنتصف يشبه المركب ملقى في وسط الحجرة، وأعقاب سجائر متناثرة كحبات الرز، وجرائد ومجلات قديمة على الطاولة، وراديو صغير بجوار الكنبة التي تحولت لونها من الأبيض إلى الرومادي والمزينة بقشور الفول الحراتي، والشيء الوحيد المنظم هي الأحذية المرصوصة بجوار الشرفة التي تكسوها الأتربة، فكل شيء هنا مغطي بالأتربة فيما عدا صور والديه وأخواته المعلقة على الحائط بجوار التلفاز وصورة شهر زاد الموضوعة على التسريحة، فإطار الصور النحاسية ساطعة والزجاج الذي يغطي الصور يلمع وليس عليه ذرة تراب واحدة..!

أطفئت شيماءالراديو، ونفضت يديها من التراب، وقالت وهي تعدل عبايتها الخليجية المطرزة:

- كيف ترتدي سترة وقبعة صوفية ونحن في فصل الربيع..؟!
- لا تستغربي..! فالحياة بأكلمها أصبحت غريبة..!
- المهم، نحن أتينا لك اليوم لكي نبيع الشقة..!
- نبيع الشقة..! هل نسيتِ وصية والدينا إلا نبيعها، لكي نجتمع فيها دائمًا..!
- توقف عن هذا الهراء..! سوف نبيع الشقة..!
- وأين أعيش ..؟!
- استأجر شقة..!
- تأجير الشقق غالي..!
- هذا ليس من شأني..!
- يا أخي حسن لماذا أنت صامت..؟!

التقط عادل إحدى قشور الفول الحراتي، وقال وهو يمد يديه له بالفول:

- أتتذكر..! حينما كنا نجلس على هذه الكنبة، ونشاهد مسلسل ليالي الحلمية مع والدينا، ونأكل الفول الحراتي..!
- لا أتذكر..! قالها وهو ينظر على جدران الحجرة المتساقط دهانها

ألقى قشر الفول الحراتي بعنف على الأرض:

- لقد سئمت منكم..!
- يبدو أنك تحب مجلات ميكي ماوس، من الواضح أنك متأثر بالطفلة التي كنت تحبها..! قالتها شيماء وهي تنظر إلى صورة شهر زاد وتمضخ اللبان.

صرخ عادل في وجههم لأول مرة، فلقد عاش طوال حياته يحترمهم رغم سخافتهم، لأن أبيه وأمه ربياها على هذا، ولكن هذا يكفي..! كيف تسمح لنفسها أن تسخر من إنسانة متوفية..

- هل أصابكِ الجنون..! أياكِ أن تتحدثي عن حبيبتي بهذه الطريقة مرة أخرى..!
- قليل الأدب..!

- ولد ..! اعتذر لأختك الكبرى..! قالها حسن وهو ينظر في ساعته الذهبية

- أنت تخاف منها دائمًا، ولا يهمك شيء إلا المال، وحياتك بأكملها عبارة عن صفقات، حتي زواجك صفقة..!

نهض حسن وقال بصوتًا أجش:

- هل تريدني أن أكمل طريق أبيك في الفقر، واشتري شكك، وكل من هب ودب يطالبني بماله..!

- الفقر ليس عيبًا يا مهندس حسن..!

ثم نظر لأخته والغضب يخرج من عينيه كألسنة اللهب:

- أنتِ كنتِ إنسانة طيبة وحنونة، تحولتي إلى حجر حينما تركك حبيبك لأن أهله رفضوكِ لأنكِ لم تكملي تعليمك، وتخيلتي أن مظهرك الفخم سوف يمنحك مكانة مرموقة، فتشعري بالمساواة مع مكانة زوجك وابن عمك الدكتور، وكرهتي ابنتك لأنكِ تكرهينه، فأنتي تزوجتيه لكي تنتقمي من حبيبك..!

- ألم تقل أنه أصابني الجنون..! أنا سوف أثبت لك هذا عمليًا..!

صعدت حياة وهي ترقص على السلالم وتغني، وفجأة سمعت صراخ خالها فألقت مابيدها على الأرض، وأسرعت فوجدته مرتمي على الأرض و يصرخ صرخات تقلع قلبها الصغير من مكانه، ضمته إلى حضنها، وحطمت دموعه تلك السدود وانهمرت، فصرخت حياة:

- ما الذي حدث..؟!

لأول مرة تشعر شيماء أن قلبها يدق، وعينيها وقعت على صورة سقطت من الحقيبة السوداء على الأرض، صورة لها مع عادل وهو صغير تأكله بيديها، هزت رأسها لا ترغب في التذكر لكي لا تسقط في عينيها، اقترب منه حسن وهو يبكي فأمسك بالفول الحراتي، تذكر..! ارتعد..! فألقى بالفول على الأرض، لا يريد أن يتذكر لكي لا يشعر بتأنيب الضمير..!

- لماذا لم يجيبني أحد..؟!
- شيماء، ألقت حقيبته التي يضع فيها كل شيء يحبه من النافذة..!
- حرام عليكِ يا أمي..!

سمعت خالها وهو يهمس ويقول بصوتًا متقطع:

- أنا أشعر بالتعب..!

وضعوه في السرير، و بدلت حياة ثيابه التي بللها العرق، وألبسته سترة زرقاء، فهو لم يرتديه منذ أن توفت شهر زاد، وانكمش مثل الطفل الصغير وراح في سبات عميق.

لم يتركه أخواته للحظة، فصرخات عادل كانت مثل الصفعة التي أفاقتهم من غفلتهم، إنهم أخوات وأن هذا البيت هو حضنهم الذي سوف يضمهم مهما بعادتهم الحياة، هذه هي الرسالة التي أراد والديه أن يفهموها.

فتحت شيماء النافذة على مصراعيها، فسمعت حسن وهو ينادي عليها:

- شيماء، هل تريدي لبن خالي الدسم أم كامل الدسم..؟!
- خالي الدسم، ولا تنسى القهوة، لا تتأخر..!
- سوف أتأخر قليلًا، لكي أحضر زوجتي، وزوجك الكسول الذي لم يستيقظ إلى الآن..!

سمع عادل صوت شيماء وحسن كالحلم، فلمحها وهي تهرول إلى الصالة فعلم إنها لا يحلم، وداعبت أشعة الشمس عينيه، فحاول أن يتذكر المدة التي ظل فيها نائمًا، عجز عن التذكر..! وتفقد حجرته، فوجد كل شيء لامع ومرتب ورائحة عطرة تفوح من أرجاء المكان، لمس وجهه فوجده ناعمًا فلقد حلقت لحيته، وأزاح قبعته الصوفية قليلًا فوجد شعره ناعمًا ورائحته منعشة، نظر إلى أعلى الدولاب فوجد الحقيبة السوداء عادت مكانها، وقبل أن ينهض شعر بشيء في جيبه، فدس يديه وأخرج ورقة بها حبوب الريحان، ووجد كلامًا مكتوبًا كتبته له شهر زاد، قرأه وعرف سر حبها للريحان، عرف أن الريحان كان يحبه والدها، ولذلك أحبته والدتها لكي تشعر بأنها مازلت

تعيش معه في تلك الأيام الجميلة متنسيه أي شيء سيء فعله يومًا، وعلى رغم من ذلك فهي لم تغرق في بحور الذكريات، حزينة على مافات، بل كانت تعيش الحاضر بقوة ودفعة من نفحات الماضي الجميل، لم تنسى شيء ولكنها وضعت ذكرياتها في قلبها، وأغلقت عليها، وتركت نافذة صغيرة تطل منها على ذكرياتها كلما اشتاقت، تلك النافذة كانت الريحان، وهي نفس النافذة التي أطلت منها على ذكرياتي مع أبي قبل أن يتزوج بامرأة أخرى ويسافر بعيدًا، تشعر بالولادة حينما لا تدفن نفسك في الماضي و تستطيع أن تتنفس الحاضر..!

فالعيش في الماضي يجعل القلب ضعيف، والروح ذابلة، وتسود الدنيا في عين الأنسان..!

فتح عادل الحقيبة السوداء، ووضع الورقة في نهاية دفتر شهر زاد، وأغلقها بالقفل المعدني، وألقى بقبعته بعيدًا، وأطلق صرخة تغمرها الفرحة، ونادى على شيماء و حياة:

- يا أهل البيت، أين أنتم..؟!

هرعت شيماء وحياة وهم فارحين:

- متى استيقظت..؟!

- لا يهم متي؟ المهم أني استيقظت، والآن ساعدوني لكي أزرع الريحان..!

نثروه الحبوب في الطين، وسقوها بالماء، ثم وضع الأصيص بنظام على سور الشرفة، وسمع زقزقة، فالتف فرأى أخيه حسن يحمل قفص به عصافير، وزوجته تحمل مالذ وطاب من الطعام، وزوج أخته يحمل علب لبن كثيرة، اقترب منه حسن:

- هل مازلت تحب الطيور والحيوانات..؟!

- هي أنيسي..!

- أحضر المسامير لكي أعلقها لك..!

دق حسن المسمار، بعدما دق أنامله معه، وعادل يضحك عليه، وهو يستشيط غيظًا:

- أنا غلطان أني أريد أن أسعدك يا عادل..!
- هو الغلط أنك لا تعرف أن تدق المسماير منذ أن كنت صغيرًا..!
- إذا لم تصمت سوف أدق رأسك بهذا الشاكوش..!
- لن تستطيع أن تفعلها..!

فجرى ورائه، وارتطم بالمائدة التي وضعوها في الشرفة لكي يتناولون الفطور، وصرخت شيماء فيهم، لأن اللبن انسكب، فأشار عادل إلى حسن لكي يتوقف، فجلس حسن ثم وقف عادل وقلده وهو يدق المسمار ويمص أصبعه من الألم، فنهض وجرى ورائه، وأمسك عادل ((حياة)) لكي لا يستطيع أن يفعل معه شيء، و((حياة)) سعيدة إنه يحملها ويلف بها في أرجاء الشقة، وزوجة حسن تضحك عليهم، وشيماء سئمت منهم فسكبت عليهم الماء، ثم لمحت زوجها يتناول الفطور بمفرده فسحبت الطبق من أمامه لكي لا يتناول الطعام من غيرهم، فنظر له بامتعاض:

- ماذنني، فأنتم عائلة مجنونة، ، وأنا جائع..؟!
- وأنت من هذه العائلة..!
- أذن فالجنان سيد الموقف..!

نهض ووضع يديه على قفص العصافير:

- إذا لم تجلسوا لكي نتناول الطعام، سوف أفتح الباب لكي تطير العصافير..!

فصرخ الجميع، وجلسوا يتناولون الفطور، ونظر عادل إلى العصافير، فوجدهم يلعبون سويًا، فهم سعداء لإنهم بوجودهم مع بعض أحياء..!

السفينة

٨٧

اشتدت حرارة الشمس، ومن شدتها جعلته يتصبب عرقًا وكأنه مصاب بحمى، وأخذت تجري قطرات العرق في مجاريها على جبهته إلى أن وصلت إلى عينيه فحرقتها، ولكنه لم يبالِ بهذا الشعور لأنه اعتاد عليه، فحينما تعتاد الشيء لا يؤلمك، أخرج فوطة برتقالية اللون باهتة من حزام بنطلونه البني المتهالك الذي يكبره بعامين وعمره لم يتجاوز العشر سنوات، فيربطه بحزام لكي لا يسقط منه، والحزام له منافع كثيرة؛ يربط فيه الفوطة لكي يخرجها بكل سهولة ويلمع السيارات التي تركن أمام المحلات التجارية ويكسب رزقه، فهناك من يعطيه جنيهًا أو اثنين أو أكثر أو تفر السيارات هربًا منه وهو يصرخ «يا باشا.. يا باشا».

عندما يجري تشعر وكأن قدميه كعيدان الكبريت تكاد تنكسر من شدة الضعف، وكان لا يقوى على الحديث لأنه يحتاج إلى مجهود فيوفر طاقته لعمله الشاق، فكان يغلق بصمته هذا على الكثير من الأوجاع والأحزان..!

وحينما يشعر أن قدميه قد تورمتا وأصبحتا مثل فقاعتي هواء وتكادان تنفجران، يجلس على أحد الأرصفة ويخرج كيسًا صغيرًا معقودًا بالحزام به «علبة لبان صغيرة بطعم الفراولة» قد اشتراها هذا الصباح، فهي أرخص شيء يمكن أن يشتريه عندما يشتهي الحلوى، فاللبان به نسبة من السكر تشبع رغبته، وكان يحب طعم الفراولة ولا يشتري غيره، لأنه يذكره بأخيه، فلقد كان يشتري له الفراولة وهو عائدًا من عمله ثم يضعونها في طبق كبير ويرشون عليها السكر ويضعونها في الثلاجة لكي يأكلوها في المساء، ومنذ أن تزوج أخوه تلك المرأة التي تشبه «الساحرة الشريرة»، كما يصفها دائمًا، توقف عن المجيء إليهم وعن مساعدتهم بالمال بعد وفاة أبيه، وهذا ما اضطره أن يعمل «ماسحًا للسيارات» لكي يصرف على أمه التي تصارع المرض، فيدخر كل قرش من أجلها.

كعادته جلس على الرصيف لكي يتناول «اللبان»، ولكنه فوجئ بأنه نفد ولم يتبقَ إلا الورقة، فهو يحب أن يحتفظ بورق اللبان لأنه يحب ورقه اللامع

وشكل الفراولة المرسوم عليه، فذهب إلى «الدكان» الذي بجوار «المحلات التجارية» لشراء اللبان، وهو عائد خطفت بصره تلك السفينة التي تنفرد بالرف الخشبي ولا ينافسها أحد، فهي تعلو جميع المعروضات، وكأنها شيء مميز، فأسرع إليها ووقف أمامها واحتضنها بعينيه وبقلبه وقبلها بشفتيه الباهتتين المتشققتين، وسقط «اللبان» من يديه الصغيرتين، ولمس بأنامله المتسخة السفينة عبر ملامسته الزجاج، وسافر إلى بعيد إلى آخر الدنيا فرأى السفينة الخشبية الصغيرة ونوافذها الزجاجية كأنها أسطول يركب فيها مع أبيه الصياد، وأمسك يديه الصغيرتين وأعطاه الشباك لكي يصطادون الأسماك فاصطادوا قرشًا ولم يسقطوا في الماء لأن أباه بطل؛ هكذا دائمًا كان يراه رغم أنه كان صيادًا بسيطًا لا يملك إلا قاربًا خشبيًا صغيرًا يصطاد به أسماكًا لكي يكسب بعض الجنيهات.

وكان دائمًا أباه يحلم بأن يكون قبطانًا ولكنه لم يحقق ما حلم به، فتمنى أن يحقق ابنه يومًا مالم يستطيع تحقيقه، وزرع بذور الحلم في قلبه، وكل يوم يكبر الحلم، فعلى الرغم من أنه تجرع مرارة الواقع فإنه ما زال يحلم بأنه يصير يومًا قبطانًا، يرتدي البذلة، والقبعة البيضاء، ويمسك دفة السفينة التي تشعره بالقيادة والتحكم بزمام الأمور، فهو يكره أن يقاد، أن يكون تابعًا، ويحلم أن يعيش في البحر طوال حياته، فهو يمقت الأرض التي يشعر بصلابتها وقسوتها من هرولته عليها طوال اليوم، أما البحر فهو يعلو به لأعلى ويهبط به لأسفل وكأنه طائر حر.

أفاق على صوت كالعاصفة ونظرات كالخناجر:

- ماذا تفعل هنا؟ أرحل الآن..! نحن ليس بحاجة إلى المزيد من الشحاذين، فإنكم تملأون الطرقات كالعناكب..!

حتى الواقع أبى أن يسمح له أن يتخيل من وراء الزجاج، فنظر الطفل إلى ملابسه الرثة ثم نظر بعينيه الهرمتين إلى الشاب، وسقطت منها دمعة ملتهبة، أخذت طريقها في وجهه الملطخ بغبار السيارات:

- أنا لست بشحاذ..! أنا رجل وأعمل لكي أكسب من عرق جبيني، أنا كنت أشاهد تلك السفينة فقط..!

وأشار إليها ويداه وحلمه يرتعشان، وحاول ألا يبكي، حاول أن يكون رجلًا، ولكنه بكى لأنه ما زال في الحقيقة طفلًا صغيرًا، حتى لو الدنيا كبرته قبل الأوان، والتف لكي يدير ظهره، ويطوي هذه اللحظة من حياته، فاصطدم برجل عجوز رائحته تشبه رائحة أبيه، فنظر إليه فوجد ملامحه مختلفة، فضمه الرجل ومسح دموعه بمنديله القماش:

- هل تريد أن تشتري تلك السفينة..؟!

هز رأسه بالموافقة، والألم كاد يفتك بقفصه الصدري، فاتكأ الرجل على عكازه، وأمسك بكفه الرمادية اللون من أثر التراب، ودفع الباب بقوة وكاد يكسره ودخل في صمت، وقال للطفل وهو يمسح على رأسه:

- أين السفينة التي تريدها..؟!

ذهب إلى الرف الخشبي وأشار إليها والخوف يتملكه، ويختلس النظرات إلى الشاب، فلاحظ الرجل العجوز فوقف أمام الشاب لكي يحجبه عنه، ثم نظر إلى أعلى، وأشار إليها بالعكاز:

- ولكن هذه السفينة صغيرة، ما رأيك في تلك السفينة الخشبية الزرقاء..؟!

رفع الطفل رأسه الصغير لأعلى، وعندما رآها رفعها أكثر، واتسعت حدقتا عينيه من شدة فرحته؛ وكأنه فتحت له أبواب الجنة، فالألعاب هي جنة الأطفال، فابتسم من قلبه فكشفت عن أسنانه الصغيرة التي تشبه أسنان الفأر:

- جميلة جدًا..!

رمق الرجل العجوز الشاب وقال بصوت أجش:

- أعطني تلك السفينة..!

قال والحروف تتباعد عن الكلمات من شدة ارتباكه:

- حـ ا ضـ ر..!

صعد السلم ورجلاه ترتجفان وكأنه أصابه ماس كهربائيّ، والطفل يترقب لحظة التقاط الشاب السفينة، وخياله لم ينتظر أن يلتقطها الرجل؛ فتخيل أنه يرتدي البذلة، ويقود السفينة، والهواء العليل يصافح وجهه النقي ، ويشرب الشاي، وشعر لوهلة بأنه امتلك الدنيا بأكملها، وهو لا يمتلك إلا بعض الجنيهات، وكلما نزل الرجل شعر بأن حلمه يقترب، السفينة تقترب وتكبر أكثر فأكثر إلى أن وصل إلى الأرض، فاحتضن الطفل السفينة وهو لا يصدق ما تراه عيناه، فظل ينظر إلى السفينة تارة وللعجوز تارة، فيبتسم له الرجل العجوز ويقول بصوت يخنقه الحزن:

- هل أعجبتك يا بني..؟!
- بالطبع يا عمو..!
- لماذا كنت تحلم بأن تشتري سفينة..؟!
- لأني أحلم بأني أصير يومًا قبطانًا..!

فضحك الشاب، فنظر إليه الرجل العجوز وهو حانق:

- لماذا تضحك..؟!

فارتبك الشاب، وتظاهر بأنه يلمع أحد الرفوف:

- لأنه يريد أن يصير قبطانًا..!
- وما الذي يضحكك في هذا الكلام، هل لأنه طفل يعمل في الشارع..؟!

ألم تسأل نفسك سؤالًا واحدًا: هل هو الجاني أم المجني عليه؟ كل طفل في الشارع هو بسبب تقصر; تقصير كل إنسان يعيش على هذه الأرض يراهم كل يوم وكأنه لا يراهم لأنه اعتاد المشهد، وينظر إليهم وكأنهم حشرات مؤذية يجب التخلص منها، ولا يستحقون الشفقة ولا الإحسان، نحن في مجتمع يعاقب الجاني المجني عليه، لكي ترى آخر مشهد وتحكم عليه يجب أن تشاهد الفيلم بأكمله ثم تحكم إذا كانت النهاية مناسبة أم لا، وقبل أي

شيء يجب أن تكون إنسانًا لكي تستطيع أن تحكم بالحق..!

- كلامك صحيح..!
- كم ثمن السفينة..؟!
- ٥٠ جنيهًا.
- تفضل.

احتضن العجوز يد الطفل الصغير الدافئة فشعر باللهيب يسري في جسده البارد، والطفل يمسك بيده الأخرى السفينة، ويلعب بها ويحركها لأعلى ولأسفل، وكأنها تعوم على سطح البحر، ويصدر صوت صفير من فمه، وكأنه صوت الرياح التي تحرك أشرعة تلك السفينة العملاقة وهي تشق طريق أحلامه، فضحك الرجل:

- هل هذه هي المؤثرات الصوتية..؟!
- نعم، فأنا أحب صوت الهواء، هل من الممكن أن أسألك سؤالًا..؟!
- طبعًا..!
- لماذا اشتريت لي تلك السفينة وأنت لا تعرفني، وأغلب الناس يخافون منا..؟!
- لأننا بشر يا بني، فأنت طفل ودموعك تحكي حكايات كثيرة.. فالأطفال لا يبكون إلا عندما يتألمون ألمًا لم يتخيلوه يومًا، ولهذا لم أتحمل أن أراك تبكي، فأنت مازلت طفلًا يجب أن يضحك للحياة ولا يبكي..!
- لماذا لم يفعل الشاب مثلك..؟!
- لأن أصابعك ليست مثل بعضها..!
- أنا أحببتك يا عمو، سوف أرحل لكي أكمل عملي..!
- وأنا أيضًا أحببتك، وأين سوف تضع السفينة لكي لا تضيع منك..؟!
- سوف أتركها عند عم إبراهيم صاحب هذا الدكان، شكرًا يا عمو..!
- لا شكر على واجب، هل سوف أراك غدًا..!
- أذا أتيت إلى هنا، بالتأكيد سوف تراني..!

سحب يديه من يد الرجل العجوز المرتعشة بصعوبة، وبدأ البرد يتسلل إلى جسده مرة أخرى ليسرق الدفء منه، تركها وهو يتأمل أصابعه الصغيرة وأظافره الممتلئة بالطين، فهو يذكره بابنه عندما كان في سنه، والآن سافر ولم يعد يسأل عنه؛ فابنه يعمل «قبطانًا» على إحدى السفن في الدول الأوروبية، ولم يراه منذ سنوات، يشبه هذا الطفل كثيرًا في لون عينيه اللتين في لون الليل، وشعره الناعم ونظراته وابتسامته.

ظل يراقبه وهو يجري بالسفينة ويحركها يمينًا ويسارًا، وصوت الصفير الذي يصدر من فمه يقل إلى أن اختفى الصوت، وتوارى وراء السيارات وابتلعه زحام الناس، انفجرت دموعه كالبركان، فأخرج منديله ومسح بيديه دموعه الملتهبة، ورحل بخطوات هادئة إلى أن ابتلعه الطريق..!

شاي وسيجارة

أتذكر جيدًا أول مرة رأيت فيها ذلك الرجل الذي يقف وراء الباب الزجاجي، كان يرتدي بنطلونًا وقميصًا متهرئًا رماديًا يقترب من لون وجهه الشاحب الذي يكسوه طبقات من الحزن والهم، وعيناه ثابتتين وكأنهما ينظران إلى اللاشيء، أو ربما يحلم بأشياء تخفف من أعبائه، فمنذ لحظة ميلاد الشمس إلى لحظة ميلاد القمر يقف وراء الباب الذي أصبح صديقه الحميم، فمجرد أن يلمحك من بعيد يفتح لك الباب، فتدخل وأنت جائع متجهم، وتخرج وأنت سعيد بأنك تحمل كل ما لذ وطاب، وهو صامد ينتظر من يعطي له جنيهين أو حتى جنيه، وعلى الرغم من وضوحه مثل وضوح الشمس من وراء الزجاج فإن الناس لا تراه، وكأنهم معصوبو الأعين، لا يرون إلا شهوة الأكل، ولا يعرفون إلا ملء البطون.

يومهاغاب قليلًا ثم عاد بكوب شاي وسيجارة ، فيشرب الشاي ويدخن بنهم، وكأنه يتناول وجبة دسمة وليس مجرد شاي مغلي وسيجارة من الأنواع البخسة، لعلهما ينجحان أن يمتصا كل ما ينغز قلبه أو تمده بالطاقة التي تجعله يصمد طوال اليوم، ليته يعرف أنهما لا يمتصان الهم ولا يمدان بالطاقة، بل يمتصان ما تبقى من صحته.

كل مرة أذهب إلى هذا المطعم أراه حزينًا، ولكن هذه المرة كانت مختلفة حينما ذهبت في الصباح الباكر لكي انتظر إحدى صديقاتي، رأيته يرتدي ملابس مشرقة وكل ما فيه يضحك، وأخذ يداعب العاملين بالمطعم الذين وقفوا معه لكي يدخنون السجائر، بعد يوم طويل وشاق من الوقوف على أقدامهم التي تخدرت من شدة الألم.

فتعالت ضحكاته، وقال بصوت متقطع:

- يجب أن يتحمل الرجل مسئولية كلامه، وما دمت قلت إنك سوف تتوقف عن تدخين السجائر، إذن يجب أن تتوقف.
- ولماذا أذن عدت لها يا عم فتحي..؟!
- هي من..؟!

- السيجارة..!
- أنا فقط سعيد لأن جددت دكاني الصغير، وسوف أملأه بالحلوى و..
- والسجائر..!

لم يتوقف عن الضحك..! فاليوم حقق حلمًا من أحلامه، ولكي يحققه بالتأكيد حرم نفسه من أشياء كثيرة، لكي يدخر المال الكافي لتجديد المحل، وجاءت صديقتي وأنا ما زلت أراقبه، وضجرت مني لأنني لم أعرها اهتمامًا، وفتحت حاسوبها لكي تنهي بعض أعمالها، وفي أثناء ذلك خرج أحد العاملين يحمل حقيبتة لكي يرحل، فناداه:

- تعالى إلى هنا لكي أفتش حقيبتك.
- لماذا؟ هل نحن في مصلحة الجمارك..!

ظل يتحسس الحقيبة لكي يتأكد أنه لم يأخذ شيئًا من المطعم، فهو لا يشك فيه، ولكن هذا هو عمله؛ دفع الباب عنك لراحتك ومتابعة الأمن، وبعد أن انتهى من التفتيش رحل العامل ولم ترحل عنه الضحكة التي كانت نابعة من جذور قلبه، وأنا لم أحرره من نظراتي، فكنت أريد أن أقول له: أخيرًا ضحكت..! ولولا خجلي لقلت له أكثر من ذلك:

- لا تجعل الحزن يسلب منك ابتسامتك، من دونها سوف نموت غمًا وحزنًا وكمدًا، ومهما شعرت أنك وحيد في هذا العالم، لأن معظم الناس تزدري البسطاء، دائمًا ابتسم لأن هناك من ينتظرون ابتسامتك لكي تمنحهم الدفء..!

روادتني فكرة، أن اشتري له هدية بمناسبة تجديد محله، فذهبت إلى المحل المجاور للمطعم، واخترت له طبق صغير منقوش عليه وجه يبتسم، لكي يضع عليه كوب الشاي، وطفاية زجاجية يطفئ فيها السيجارة، وأعطيت له الهدية وأنا ابتسم من الخجل، فأعجبته كثيرًا، وطلبت منه أن التقط له صورة، فأنا مصورة، وسوف أكون سعيدة إذا امتلكت صورة له تذكرني به دومًا، فصمت قليلًا ثم قال:

- بشرط أن تصوريني مع الشاي والسيجارة..!
- ولكن السجائر مضرة يا عم فتحي..!
- أعلم إنها مضرة..! ولكن ما أجمل أن أحب أشياء أجد ثمنها في جيبي، ولا أشعر معها بالغربة..!
- اختار أشياء أخرى لا تضرك..!
- الأشياء هي التي تختارنا..!
- فيلسوف..!
- أنا لن انساكِ، فأنتِ أول إنسانة رأتني إنسانًا وأهدتني هدية..!
- أنت إنسان رغم أنف العالم بأكلمه..!

ضبطت عدسة الكاميرا، وعم فتحي يمسك بكوب الشاي ويرفعه لأعلى قليلًا، ويضع السيجارة بين أصابعه، ويبتسم لي، فالتقطت صورة لأجمل ابتسامة; ابتسامة بلون القمر ودفء الشمس..!

٥٠ قرش

دخلت بخطوات هادئة واهنة إلى بائع الخضروات، تحمل كيس أسود بداخله علبة جبنة قديمة، تتلفت يميناً ويساراً، تبحث عن شيئاً بعينه، تتطوق نفسها إليه، وأخيراً عيناها وجدت ضالتها البصل الأخضر، فأخذت ربطة، واستنشقت رائحته النفاذة القوية، فرائحته تشفي القلب العليل، ثم وضعته في الكيس، فيبدو أنه غدائها، فالأطعمة أصبحت باهظة الثمن، فهي تأكل الخضروات والفاكهة الرخيصة طوال السنة، وتأكل اللحم في المناسبات..!

ذهبت إلى (البائع) ودفعت له ٥٠ قرش وهي تبتسم، وهرعت كالطفل الذي يشتاق أن يأكل شيء يحبه لا مجبر عليه، وقبل أن تلمس قدميها الشارع، فوجئت بصوتاً عالياً يصوب تجاهها كالسهام:

- بجنيه, يا ست..!
- ربطة البصل بجنيه..!
- نعم..!

أخرجت ٥٠ قرش من الكيس، الذي أهدته له حفيدتها في عيد الأم:

- تفضل..!
- ٥ قروش و١٠ قروش، لا نعمل بها..!
- ولكنها لم تلغى..!
- لا يرضى أحد أن يأخذها منا..!

الصدمة ابتلعت ابتسامتها، وتنهدت تنهيدة تحرق مدينة بأكملها، ودعت البصل الأخضر بعيون حزينة ووجهاً خجول، فلقد كانت تشتهيه..! وبحث عن شيء آخر بـ ٥٠ قرش، وهل يوجد شئ بـ٥٠ قرش اليوم..؟! فلم تجد إلا الجرجير، أخذت ربطتين، ووضعتهما في الكيس.

خرجت بجلبابها الأسود الباهت الملطخ بالغبار، فآثار الجلوس على الرصيف واضحاً عليه، وصلت إلى بيتها الخشبي المنشأ في مدخل العمارة، وضعت الجبنة القديمة في طبق بلاستيك أخضر، وغسلت الجرجير، وأخرجت من الفرن الخبز الفلاحي التي خبزته عندما زارت أمها في الأرياف، وشعرت

بالسعادة على الرغم من إنها لم تشتري البصل الأخضر، فجلوسها أمام التلفزيون، وتناول الجبنة القديمة، والخبز الفلاحي، والجرجير، وكوب من الشاي بالنعناع، سيجعلها أسعد قلب في الدنيا..!

الحصان المكسور

١٠٥

اعتاد جسدها الذوي أن يقوم بنفس المهام كل يوم، واعتادت أيضاً أشياء كثيرة لم تكن تعرف يوماً أنها سوف تعتادها، فهذه هي الحياة لا تعرفها قبل أن تعيشها، وها هي الآن تعيش حياة مختلفة عما كانت تعيشها في بيت أبيها وأمها، فأبيها كان يشتري لها كل شيء تحبه بمجرد أن تفكر فيه، وأمها لا تسمح لها بأن تفعل شيء في البيت، فكانت تقضي معظم الوقت عند الكوافير، وفي شراء الملابس، والمذاكرة عند صديقاتها، ودروس الباليه، أما الآن فلقد تبدل حالها وشكلها تستيقظ من نومها منكوشة الشعر وتذهب إلى المطبخ لكي تعد الإفطار في عجلة من أمرها ، ثم تذهب بجسدها البدين الهلامي إلى حجرة طفلها محمد، وتنظر إليه بعيون حانية، وابتسامة ناعمة، سعيدة أنه في حياتها ومعها، فتقبله على يده لكي تعبر عن حبها له، فيفتح عينيه الصغيرتين كالزيتونة، ويقفز على ظهرها، فتمسك بيديه الصغيرتين، وتدندن له أغاني يحبها ، وعلى الرغم من ثقل وزنه، ولكنها تستمتع بحمله لأنها تشعر بأن ظهرها ليس للعراء.

يجلس على إحدى الكراسي، فتأكله هبة في فمه، ويمسك بإحدى يديه كوب اللبن; فيقضم قضمة من الرغيف ويرتشف رشفة من اللبن، فهو يحب أن يذوب الرغيف مع الحليب الدافئ في فمه، ويحكى لأمه وهو يمسك حصانه البني الصغيرالمكسور إحدى قدميه، عن صديقه في الحضانة الذي اشترى له أباه دراجة حمراء، بها زمارة معدنية صغيرة يصدر أصواتًا جميلة، وزينها له بشرائط ملونة، لكي يلعب بها في الشارع بعد أن ينتهي من المذاكرة، ثم وضع حصانه على الطاولة، وامتنع عن الأكل، ونظر لها بعيون تتزاحم فيها الأسئلة، فقال وهو يجذب الحصان من ذيله:

- لماذا لا يفطر معنا، أبي و لا يلهو معي ، ولا يشترى لي الألعاب..؟!

فوجئت هبة، فارتشفت رشفة من قهوتها، وقالت محدثتاً نفسها:

- بماذا أجاوبك؟ أقول لك أنني تزوجت أبيك عن حب، وكنت أعتقد أنه رجلاً قادراً على تحمل المسئولية، وأنه يحبني و سوف يكون درعي في هذه الحياة، فاستيقظت من حلم جميل على كابوساً ليصفعني ويخبرني بالحقيقة، أنه رجلاً أسمًا فقط، فمنذ أن ترك عمله ظل قابعا في البيت، مردداً حججًا واهية أنه يريد أن يعمل في وظيفة تليق بمكانته، ووافق أن أعمل صباحاً ومساءً لكي أشتري نيابة عنه الطعام وأدفع مصاريف المدرسة واشتري له السجائر، و إذا تعاركنا يومًا يتركنا نقيم بمفردنا في البيت في هذه المنطقة الهادئة، والسبب أن رجولته لم تسمح أن أطالبه بحقوقنا، وأني أشعر بأننا مسئولون منه لا عليه، ولهذا في المساء حينما نخلد إلى النوم أعتصرك بين أحضاني لكي أشعر بالدفء والأمان في قلبك الصغير، وأفكر في الطلاق من أبيك كثيراً, ولكنى أتراجع لكي لا أحرمك منه ولا أحمل هذا اللقب العار ((المطلقة))، تعلم أين المشكلة؟ أنني بسبب الحب تنازلت عن حقوقي، فحينما تتنازل عن حق من حقوقك، فأهلًا بك في عالم التنازلات الذي لا ينتهي ولا يتوقف.

لن أخبرك بالحقيقة لأنك مازالت طفلاً بريئًا، ولديك عالمك الصغير، والكبير بخيالك، الذي ينسج كل يوم حكاية وأبطالها لعبك الصغيرة، والحقيقة لن تذهب إلى أي مكان، بل تظل ساكنة إلى أن يأتي اليوم، وتنطلق بكل قوتها لتصفعك، وتخبرك بكل شيء، ولكني أخاف عليك من صفعتها، أخاف أن تعرف أن أباك لم يعد يأتي إلى هنا لأنه تزوج الأسبوع الماضي بامرأة أخرى; وهي جارته التي وورثت مالًا كثيرًا، ولقد علمت بالصدفة البحتة، ففي يوم كنت أتحدث معه في أني أرهقت من كثرة العمل، فتحجج بأن كلامي أغضبه ليتمكن من البيات خارج المنزل، ولم يخطر بباله أنني سوف أعلم، فبساذجتي قد ذهبت إلى بيت أمه لكي اعتذر له، فوجدت أخواته يتهامسون ويضحكون، وحينما نهرتهم وسألتهم عن سبب ما يفعلونه،

أخبروني بالحقيقة، ولم أتمالك نفسي فصرخت، وهم لم يلقوا بالًا بألمي، بينما كل الذي شغل بالهم، بأني اصمت لأنني في بيت محترم، ولم يسمع لهم الجيران صوتًا طوال مدة سكنهم.

فاخترت الصمت، فأحيانا يكون الصمت يكون حلاً مزيفاً، صمت من أجل أن تعيش في كنف أبيك، صمت من أجلك..!

نظرت إلى طفلها، فوجدته يلعب بحصانه المكسور مثل قلبه، و نسى أنه سألها.

فتنفست الصعداء ونهضت:

- هيا بنا يا محمد، لقد تأخرنا عن المدرسةَ

حملته على ظهرها، وانتزعت من يديه الحصان، وألقت به في صندوق ألعابه المجاور لباب الشقة، فتبرم، ووضع رأسه على كتف أمه، ولمست دموعه خدودها:

- هذه اللعبة الوحيدة الذي اشتراها لي أبي في عيد ميلادي، وأحبها لأنها من رائحته.

التقتطت هبة الحصان المكسور من الصندوق، فاحتضن محمد الحصان:

- صباح الخير أبي، اليوم هو أول يوم في المدرسة، وبالتأكيد سوف تأتي لكي تراني، وأنا ارتدي الملابس الجديدة.

أغلقت الباب بقوة، وهرولت على السلالم لكي تهرب من أوجاعها، وقبل أن يركب محمد الأتوبيس، أخذ ينظر يمينًا ويسارًا:

- أمي، أين أبي..؟! لماذا لم يأتي..؟!
- لعله لم يأتي من السفر إلى الآن..!
- الذي يسافر يذهب ويعود، أم أبي لم يعد إلى الآن..!
- قد يعود يومًا..!

ودعته وهو يلعب بالحصان من وراء زجاج النافذة، وظل يبتعد الأتوبيس إلى أن صغر واختفى، مثل زوجها تماما الذي ظل يبتعد إلى أن صغر وسقط في عينيها، وأصبح مثل الحصان المكسور، أعرج لا يقوي على السير بدون أن يعتمد على غيره، معاق في رجولته..!

علامة النصر

لم تكن تعلم أن الاعتياد أصعب من الحب..! فالاعتياد كان بالنسبة لها أشبه بالمخدر الذي يضخ إليها كل يوم بكمية قليلة..! فلقد عرف قلبها معنى الانتظار..! أن ينتظر جرس التليفون الذي معه يبدأ حديثًا ويستمر إلى الصباح الباكر..! أن ينتظر لكي يسمع حكايات على أنغام الموسيقى الكلاسيكية، ليس مهمًا أن تحكي هي ولكن المهم أنه يحكي وتخفف عنه أعبائه..!

ومرت الأيام لتكتشف إنها لم تكن له سوى إنسانة تسليه في وقت فراغه، حتى إنه لم يتمعن في روحها لكي يعرفها، وإنما اكتفى بأنه يعلم أنها إنسانة طيبة..!

فارتطم قلبها الطفولي بصخرة الحقيقة، وبدأت تعاني من أعراض انسحاب المخدر من روحها، وتألمت..! فتنام حينما يقتلها التعب، ولا يتركها في أحلامها وكأنه لعنة تطاردها، تأكل حينما يعتصر الجوع معدتها الصغيرة، تضحك بصعوبة، تحاول أن تبكي ولا تعرف، وتحاول أن تصرخ فلا يصدر منها أي صوت..!

تريد أن تهرب من زنزانته التي حبسها فيها، وتركها وذهب هو إلى حياته، وكأنه من حقه أن يسلبها حياتها وقتما يشاء، ومن حقه أن يستدعيها ويصرفها وقتما يشاء، وكأنها دمية بخيوط في يديه، تريد أن تمزق تلك الخيوط بكل قوتها وأين هي قوتها؟ فلقد سلب منها قوتها أيضًا، يا ليتها تستطيع أن تمسح هذه الفترة من حياتها، و تسكن الراحة قلبها وعقلها مرة أخرى..!

لم تنم اليوم جيدًا، والصداع كاد يشرخ رأسها طولًا وعرضًا، ولكنها صممت أن تذهب وتجلس أمام النيل، لعله يجعلها تتنفس بشكل أعمق فهي تعاني ضيقًا في التنفس من ثقل الهموم، أو يهدئ خوفها الذي لا ينتهي..!

ظلت تتأمل المارة، وتبحث بينهم عن صحبة تفتقدها، هو كان بالنسبة لها الصحبة، ولكن الآن أصبح غريبًا عنها..!

جذبها صوت موسيقى آت من بعيد، من مركب صغير يسير في النيل، وكلما اقترب سمعت صوت أطفال يتغنون مع الموسيقى، ظلت تراقبهم بعينيها

اللتين يسكنهما الوجع، وبمجرد أن رست تلك المركبة الصغيرة ألقت بجسدها النحيل على السور، فوجدتهم يصعدون فهرولت إليهم، والحزن يثقلها ولكنها تجري، تعرف أنها لكي تتخلص من ذلك الشعور يجب أن تجري بعيدًا عنه..!
وهي تجري صوتها الداخلي كان يخبرها بأن:

- أقسى شيء هؤلاء الذين يدخلون حياتنا فيبعثروها، ثم يقررون أن يخرجوا منها دون أي سابق إنذار، أو حتى مراعاة لمشاعرنا، وكأننا كنا في حياتهم «كومبارس» ليس إلا وهم أبطال، ويعجبهم دور البطولة الذي نعطيه لهم، نعوضهم عن النقص الذي يفقدونه مع الآخرين..!

ألم تتذكري حينما قال الدكتور مصطفى محمود في كتابه «الأحلام» في مقال بعنوان «الوهم» فيما معناه: نحن من نعطيهم الأهمية والقيمة..! نحن نرى فيهم ما نتمناه لا نرى ذاتهم..!

وأخيرًا وصلت إليهم وهي تلهث، ووقفت أمام مجموعة الأطفال والخجل يزين وجهها، وهم ينظرون إليها في تعجب ويتساءلون بعيونهم البريئة: من هي؟ وماذا تريد..؟!

وكانت تقف معهم فتاة عمرها لا يزيد عن ٣٠ عامًا، وشاب في نفس العمر تقريبًا. رحبوا بها وشعروا أنها تريد الانضمام إليهم، فتقدمت الفتاة إليها بخطوة وسلمت عليها:

- اليوم هو ((يوم اليتيم)) ونحن نقوم بنزهة مع الأطفال، إذا كانت لديكِ رغبة في الانضمام إلينا، بالتأكيد الأطفال سوف يسعدون بهذا كثيرًا.

لم تتفوه بكلمة إلا إنها هزت رأسها بالموافقة. وبالفعل انضمت إليهم، والأطفال لم يأخذوا كثيرًا من الوقت لكي يعتادوا عليها، فالأطفال قلوبهم مثل الترمومتر؛ يشعرون بالأشخاص الطيبين أو السيئين سريعًا ولا ينافقون ولا يخافون، إذا أحبوك قالوا وإذا كرهوك قالوا..!

ظلت تلعب معهم على كورنيش النيل، وتناولت معهم الذرة المشوي، وأخرج الشاب جيتاره من حقيبته، وبدأ يغني أغنية لفريق غنائي اسمه «كايروكي»

والأطفال غنوا معه، وهي لم تتمالك نفسها وغنت هي أيضًا، والأمل اجتاح قلبها مرة أخرى، ووجدت أن الفرح ما زال يعرف طريقه إلى قلبها، وما عليها إلا أن تكافح من أجل أن تتحرر من أوهامها.

سكتت للحظات تفكر، فنظر إليها الشاب لكي يحمسها للغناء، فابتسمت وبدأت تغني معهم مرة أخرى.

وبعد أن انتهوا من الغناء، قالت:

- هل تحبون لعبة الخيال..؟!
- خيال..؟!
- نعمل بأيدينا أشكالًا على الحائط..!
- نعم نعرفها.

ظلت تلعب معهم فتارة تعمل شكل «الغزالة» وتارة «حمامة» وهم يفعلون مثلها تمامًا، تسارعت أفكارها ودقات قلبها، حينما رأت على الجدران خيالًا لرأس يشبه رأسه، وسمعت صوت يشبه صوته، لا تعرف أين المفر..؟! لا تريد أن تراه، ولا تنظر في عينيه، فالعيون تفضح كل شيء، فهي وصلت إلى مرحلة لا تريد أن تبدأ طريق الأوجاع مرة أخرى، والتفتت فجأة فلم يكن هو..! فابتلعت ريقها وأخذت نفسًا عميقًا وأكملت لعبها.

ومع دقات الساعة العاشرة أعلنت الشابة والشاب أنه قد حان وقت الرحيل، فطلبت منهم أن يلتقطوا لها صورة مع الأطفال، وقفت معهم وعملت بأصابعها «علامة النصر» النصر على اعتيادها الزائف، وعرفت أنه ليس كل اعتياد سيئ، الاعتياد يصبح سيئًا حينما يتحول لعبودية، حينما تكون تابعًا لشخص يستنزف أجمل ما فيك لكي تكون مصدرًا لتسليته وسعادته في مرحلة من مراحل حياته، واليوم تحررت من هذا الاحتلال الذي دمرها، فاليوم انتصرت واستردت حياتها الجميلة مرة أخرى، استردتها حينما عاشتها

لأول مرة بصدق مع هؤلاء الأطفال، عاشتها كما يحلو لها، وعلمت أنها لكي تكون قوية يجب أن تكون سيدة نفسها..!

البيانو

١١٧

دخلت إلى فراشها، وحاولت أن تغمض عينيها، ولكن قلبها أبى وتذمر واعتصم، لا يريد أن تمر لحظة دون أن يستمتع بالانتظار؛ فعلى الرغم من أنه يعلم أن الانتظار يعنف بضرباته، وأن وراء بابه قد يأتي الفرح وقد يأتي الحزن، فإنه مع ذلك قبل التحدي، وظل في صراع مع عينيها اللتين تريدان أن يغلقا أبوابهما لكي يمر الوقت سريعًا ويأتي الصباح، إلى أن ملت فأزاحت الملاءة البيضاء عنها، فكل شيء هنا أبيض اللون: السرير، والتسريحة، والمقاعد، لكي تبعد عنها كل شيء قاتم اللون؛ فجدران روحها وقلبها قاتمة من شدة الوحدة، ولهذا كانت دائمًا تريد أن ترى كل شيء مبهجًا في بيتها لكي تستطيع فقط أن تتنفس..!

وضعت الشال على ذراعيها، ونظرت في الساعة فوجدتها الثانية صباحًا، فذهبت إلى المطبخ لكي تعد فنجانًا من القهوة، فسمعت أصوات الأطفال وهم يلعبون، ويفرقعون الصواريخ في الطرقات، وأصوات أهاليهم وهم يضحكون ويشاركونهم فرحتهم، فيهلل الأطفال:

- أمي نريد أن نشرب الشاي بالحليب و نتناول الكعك..!
- ليس الآن، ساعات معدودة ويأتي الجد والجدة ونصلي صلاة العيد ونأكل جميعًا..!

فيطلقون الصواريخ في السماء، فرأتها تلك السيدة في سماء نافذتها، وانتزعت ابتسامة من قلبها، ورغم قتامة السماء فإن تلك الألوان تجعل منها لوحة فنية جميلة، مثلها تمامًا فعلى الرغم من قتامة روحها فإن هناك دائمًا شيء يجعل منها لوحة فنية رائعة.

أفاقت على فوران القهوة، ولكنها لم ترتبك فهي معتادة على أن تشرد وتتأمل وهي تعد القهوة، سكبتها في الفنجان وحملته بيديها المرتجفتين اللتين غزتهما التجاعيد، وعلت سطحهما النقط البنية، والتشققات، فأصبحتا يشبهان قطعة الخيش، فهي لم تعد تستطيع حمل الأشياء رغم أنها لم تتجاوز

الخمسين من عمرها، ولكن الأرواح الوحيدة يصيبها العجز سريعًا.
جلست بهوادة على مقعد من القطيفة الحمراء؛ وما إن وضعت يديها على البيانو توقف الارتجاف وأصبحتا أكثر نعومة وكأنهما قطعتين من الحرير، فهي خريجة كلية التربية الموسيقية، وعملت مع فرق ونظمت حفلات كثيرة، ورغم نجاحها الساحق فإنها تركت كل شيء لكي تتفرغ لحياتها، فسافرت مع زوجها على بساط الريح وزارا كل الأماكن التي تمنيا أن تطأها روحاهما، وتناولا جميع الأكلات التي كلما رأياها في المجلات تمنيا أن يأكلوها معًا، وحينها شعروا بأن الدنيا أكثر جمالًا وأكثر براحًا، فتركها الموسيقى وزواج ابنتها أعطاهما مساحة لكي يستمتعا بالحياة سويًا، بعد أن ابتلعتهما في دوامتها، وحينما أدركا وحاولا أن يبتعدا عن تلك الدوامة وافت زوجها المنية.
ومنذ ذلك الحين وهي تعيش وحيدة في هذا البيت الواسع الذي تشعر وهي بداخله بأنه ضيق، ورغم أنها تشعل جميع أضواء البيت فإنها تشعر أنه مظلم، ولهذا اشترت أمس لمبات كثيرة، وجعلت الكهربائي يركبها لكي تزيد من إضاءة البيت، ولكنها لم تشعر لوهلة بالفارق، وظلت توبخه وتتهمه أنه اختار لها لمبات من أردأ الأنواع، ورغم أنه أقسم لها أنها من أجود الأنواع، فإنها لم تصدقه، وحلفت بأنها لن تشتري من عنده أي شيء آخر طوال حياتها، حتى إذا ماتت فسوف توصي ابنتها ألا تؤجر قناديل مراسم موتها من عنده.
وأحيانًا تحدث أشياء تجعلها تشعر بالبراح، وترى كل شيء على حقيقته، فترى البيت واسعًا، والأضواء تضيء البيت بأكمله، حينما يدبدب أبناء الجيران على بابها، ويتوسلون إليها أن تعطيهم الكرة التي قفزت في شرفتها، خائفين ألا تعطيهم إياها؛ وهي دائمًا تدعو الله بقلبها أن الكرة تقفز في شرفتها لكي تراهم؛ فهم يذكرونها بحفيدها يوسف الذي لم تراه منذ شهور كثيرة، وكلما حاولت أن تشاهده تعللت ابنتها بأنه لديه امتحانات كثيرة، وعندما ينتهي سوف تحضره لها، ولكن هذا لا يحدث، لأن بعد انتهاء الامتحانات تسافر مع

ابنها وزوجها لكي يتنزهون.
وحينما تعزف أيضًا، وتلمس بأنامل روحها أنامل البيانو، تشعر بأن روحها وبيتها مفتوحين على السماء، والنجوم تعزف معها، والقمر قائد هذه الفرقة الموسيقية، فيزداد ضياؤها، ويزداد معه ضياء روحها وبيتها.
توقفت عن العزف مع ارتفاع صوت أذان الفجر، وبعد أن انتهت من الصلاة، فتحت نوافذ البيت، أما نوافذ روحها المغلقة بأقفال حديدية ، لا تفتحها إلا رائحة الكحك التي تفوح من جميع البيوت، فتأخذ نفسًا عميقًا فيكسر أول قفل، وفرحتها بأبناء الجيران وهم يلعبون الكرة ويقعون على الأرض، وفرحتهم بأن اليوم العيد ولا يوجد مذاكرة ولا نوم باكر، فتبتسم فيكسر ثاني قفل، وفرحة جلجلت في قلبها حينما رأت بائع الطراطير، فكسرت جميع الأقفال الأخرى، وتحرر صوتها، وسمع صداه جدران العمارات، والجيران، وجميع المارين في الطرقات، ونظر الجيران إليها مندهشين فهم لم يسمعوا صوتها منذ أن توفي زوجها، فلقد توقفت عن شراء النعناع الذي كان يحبه، لكي لا ترى ملامحه أمامها فتنهار، فما أصعب الصمود أمام الذكريات الجميلة والواقع الحزين.
فأنزلت السبَت سريعًا:

- أريد طرطورًا أحمر.
- هل تريدين زمارة أيضًا..؟!
- زمارة صفراء..!

دخلت سريعًا، ووضعت الطرطور والزمارة وراء المزهرية لكي لا يراهما يوسف، ولكي تفاجئه حينما يأتي، فما أجمل أن يغمض الإنسان عينيه، ويفتحهما فيرى ما يحبه، فيشعر بأنه في عالم آخر، وهو يحب الطرطور والزمارة كثيرًا لأنه يحب التمثيل، فلديه قدرة أن يحول أشياء صغيرة يمتلكها إلى قصص تستمتع بها الجدة كثيرًا؛ فذات مرة أخذ وسادة تدلى منها أربطة، وربطها في عنقه، ومثل بأنه فتى ذو أجنحة يطير في السماء، وينقذ المساكين

من هؤلاء الأشرار الذين يضربونهم ظلمًا، وهو بالفعل يشترك في مسرحيات بالمدرسة، وجميع المدرسين يتوقعون بأنه سوف يكون ممثلًا عظيمًا، في دنيا أصبحت العظمة فيها شيئًا نادرًا.

أحضرت طبقًا من الكريستال له بريق يبدو منطفئًا أمام بريق فرحتها، فاليوم سوف تزورها ابنتها وزوجها وحفيدها، ويحتل دفء أجسادهم وأنفاسهم وأرواحهم وأصواتهم أركان هذا البيت، ويرحل البرد بعيدًا حينما تحتضن ابنتها، وحينما يقول لها يوسف:

- افتقدك يا جدتي الجميلة مثل الورد البلدي، فأنا أحبه كثيرًا لأن ملمسه حانٍ مثلك..!

فتحتضنه وتقبله في كل مكان في وجهه، وحينما يأتي هذا الوقت الذي تتمنى ألا يأتي أبدًا، وهو وقت الرحيل، تظل متعلقة بحضنهما كالطفل لكي تمتص أكبر قدر من الدفء، وبمجرد أن يذهبوا ينخر في البرد عظامها مرة أخرى.

رصت الكحك السادة والمحشو بالملبن في شكل هرمي، والبسكويت بشكل طولي وأفقي وكأنه بيت صغير؛ فالفرحة أيقظت بداخلها تلك الفنانة الساكنة، ورشت على الورد بعض قطرات الماء لكي يفوح عطره ثم وضعته في المزهرية، ووضعت أطباقًا صغيرة، وملاعق مطلية بالفضي، ومناديل قماش حمراء مطرزة بوردة بلدي صفراء، وبعدت قليلًا لكي تتأكد من أن كل شيء في مكانه، فشعرت بأن المائدة لوحة فنية ينقصها فقط أن يأتوا لكي تكتمل؛ وبهذا سوف تكون أجمل لوحة، وتستحق أن توضع في أعظم متاحف العالم.

تعالت أصوات المهللين في المساجد لصلاة العيد، فارتدت جلبابها الأبيض، وأمسكت مسبحتها المعطرة بالمسك الأبيض، فرائحته تخلق بداخلها روحانيات، ثم خرجت من البيت، ولم تهبط في المصعد، ولكنها نزلت على السلالم، فهي لا تريد سرعة المصعد تبتلع سعادتها؛ فهي تريد أن تتذوقها مع كل سلمة تتراقص عليها قدماها.

دخلت المسجد، ووقفت بجوار المصلين تصلي بكل خشوع، والله أكبر تملأ

قلبها، فتشعر بأن الحزن لم يزر قلبها يومًا، فتتذكر زوجها حينما كانت تضيق به الدنيا، ويراها مثل خرم الإبرة فيردد: الله أكبر، فيشعر بالراحة والسكينة. انتهت من الصلاة، وسلمت على جيرانها، وقبلت أبناءهم، وهمت بالرحيل، ولكنهم أرادوا أن تفطر معهم، فربتت على أيديهم:

- غدًا إن شاء الله، لأن ابنتي وزوجها ويوسف سوف يأتون بعد قليل.

- أخيرًا..! لم نراهم منذ فترة كبيرة، فهل كانوا مسافرين؟

ارتبكت قليلًا:

- أبدًا..! فقط مشاغل الحياة..!

صعدت السلالم بنفس الخطوات التي نزلت بها، ودخلت البيت، وفتحت جميع النوافذ لكي تعانق الشمس قماش الأريكة، وخيوط السجاجيد، فتستنشق عبير حرارتها، وبدلت ثيابها، وارتدت جلبابًا أزرق مطرزًا بخيوط ذهبية، وحررت شعرها من تلك الربطة التي تخنقها، وجعلته ينساب على كتفيها حرًا طليقًا مثلها تمامًا؛ لا يقيدها اليوم حزن أو دموع.

غلت الحليب، ووضعت الماء الساخن في الإبريق الصيني، وملعقة شاي في كل فنجان، ما عدا كوب يوسف، فهي تخاف عليه من المنبهات، ثم أشعلت البخور لكي يملأ دخانه البيت.

تراقب عقارب الساعة، فتتوسل إليها أن تقلل من ثوانيها، وكلما اقتربت الساعة من السابعة عنفت ضربات قلبها لقرب مجيئهم، باقٍ من الزمن دقيقة واحدة، وما أن دقت دق جرس الباب، فهرعت وألقت نظرة أخيرة على نفسها في المرآة المعلقة بجوار الباب، فهي لم ترَ فرحتها في المرآة منذ فترة كبيرة ، دائمًا ترى وجهها عبوسًا.

فتحت الباب لتقف ابتسامتها مترددة بين أن ترحل أم تبقى، فلم تكن ابنتها وزوجها ويوسف، بل كان أحد أبناء الجيران يحمل طبقًا ورديًا ممتلئًا بالكحك والبسكويت والغُرَيِّبَة

فقال لها ولسانه ينفلت من بين أسنانه المهشمة:

- كل سنة وأنتِ طيبة يا طنت..!

- وأنت طيب يا حبيبي، اشكر ماما كثيرًا..!

أغلقت الباب، والحزن والبرد أوشكا على اقتحام قلبها، ولكنها أوقفتهما محدثة نفسها:

- لعلها الطرقات اللعينة المزدحمة هي التي جعلتهم يتآخرون، سوف أتصل بهم..!

اتصلت بابنتها فلم ترد، فاتصلت مرة أخرى، فردت هذه المرة:

- كل سنة وأنتِ طيبة يا أمي..!

- وأنت طيبة يا حبيبتي، لماذا تأخرتم؟

- لن نأتي اليوم لأن حماتي عزمتنا أن نقضي اليوم معها في الساحل الشمالي..!

- ولماذا لم تخبروني بهذا..؟!

- نسيت..! ولكني سوف آتي ربما غدًا أو بعد غد.

- أريد أن أتحدث إلى يوسف..!

- يوسف مع جدته وجده في سيارتهما، حينما نصل سوف أجعله يتحدث إليكِ..!

أغلقت التليفون في وجهها، واغتصب الحزن فرحتها، وتجمد كل شيء أمام عينيها؛ فأصبح البراد والفناجين والكحك قوالب من الحجارة تريد أن تهشمها وتتخلص منها، فأحضرت علبة كبيرة ووضعت فيها الكحك والبسكويت بشكل عشوائي؛ هذه العشوائية التي تعقب الحزن.

ركبت المصعد لكي يبتلع أحزانها، وما إن لمست أقدامها الشارع شعرت بهدوء يسكن الطرقات، وغيوم يجعل كل شيء رماديًا، مع أنه منذ قليل كان به حركة وضجيج ومليء بالألوان، ما الذي تغير؟ فلقد كسرت فرحتها بيد ابنتها، فكسر الأشياء ممكن أن يصلح أو نشتري غيره، ولكن كسر الفرحة ما الذي

يصلحه؟ فهو ليس سلعة، وإنما مشاعر منسوجة في نسيج القلب..!
ظلت تسير وهي هائمة على وجهها، فتتذكر زوجها وابنتها حينما كان يصلون العيد معًا، ويتناولون الكحك والبسكويت، ويتساقط منهم في فناجين الشاي، وتتعالى ضحكاتهم حين يسخر أحدهم من غيره لأنه أسقط البسكويت والكعك في الفنجان، فلا تمر ثوانٍ إلا وهو يفعل هذا أيضًا.
ظلت تتذكر مشاهد من حياتها إلى أن وصلت شارعًا لم تراه من قبل، فعلى ما يبدو أنها قطعت مسافة كبيرة وبعدت عن بيتها كثيرًا، ظلت تتلفت حولها تبحث عن لافتة تخبرها أين هي؟ فاستوقفتها لافتة مكتوب عليها «دار الرحمة للأيتام»، فسارت تبحث عن مكانه، فوجدته في عمارة صغيرة في الدور الأرضي أمامه حديقة صغيرة، فشاهدت بعض الأطفال يعلقون الزينة والبالونات في الشرفة، والبعض الآخر يلعبون «الاستغامية» في حديقة المنزل، فيزينونها بملابسهم الملونة.

دخلت بخطوات ملهوفة، وروح مشتاقة، وعيون متعطشة، أن ترى الحياة بألوانها الطبيعية من دون غيمة الحزن، وما إن وصلت إليهم ورآها الأطفال اختبئوه وراء المشرفة قائلين وهم يضحكون:

- هل تلعبين معنا..؟!

فضحكت المشرفة:

- هي كبيرة، لن تلعب معكم..!

فنظرت إليها السيدة:

- أنا ما زلت طفلة في داخلي رغم أن ملامحي هرمت، فإذا هرمت روحي فلن أصمد بعد ذلك..!

- كلامك جميل أيتها السيدة الفاضلة، تفضلي معنا، كنا نعد الفطور..!

- لا تعدوا شيئًا، فأنا معي كحك وبسكويت..!

جلسوا جميعًا في الحديقة، وأحضرت المشرفة أكواب الشاي بالحليب، وقبل

أن يتناولوا الكحك والبسكويت، قالت لهم السيدة، والفرحة تعتلي أسارير وجهها:

- ما رأيكم إذا أنزلنا البسكويت والكحك في الشاي بالحليب..؟!
- جميل..!
- بشرط ألا تسقط منكم في الكوب..!

فعلوا مثلما قالت، وكلما سقطت من أحدهم بداخل الكوب، وحاولوا أن ينتشلوها وفشلوا، تذكرت يوسف حينما كان يضجر من سقوط البسكويت والكحك، كان يشرب الحليب بهما.

شعرت بالفرحة..! ولكنها مبتورة، ينقصها عائلتها الصغيرة، لا تعرف إجابة لسؤالها إلى الآن: كيف هانت على ابنتها أن تتركها وحيدة في أول يوم العيد؟ هل أصبحت سعادتها في مكان آخر؟ أم أن السبب هو العادات والتقاليد اللعينة، التي تحكم على زوجة الابن أن تذهب إلى حماتها أول يوم، دون مراعاة لشعور الأخرين؟

نظرت في وجوه هؤلاء الأطفال، تطبع صورهم في قلبها، لكي تأنس روحها بهم طوال الليل بالتفكير فيهم، بدلًا من أن تدير التلفاز لكي تشعر بأصوات في المنزل، وتستطيع أن تخلد إلى النوم، وفي أغلب الأحيان لا تنام إلا حينما تشقشق العصافير.

أخرجت بعضًا من المال لكي تعطيهم العيدية، فانهالوا عليها بالقبلات التي ألهبت روحها، ثم نهضت لكي ترحل فقالوا لها جميعًا:

- ابقي معنا اليوم، فلقد أحببناكِ..!
- يجب أن أرحل..!
- بالتأكيد ينتظركِ أبناؤك وأحفادك..!

تنفست محاولة أن تزيح عن صدرها صخرة أوجاعها، لكي تتمكن من الحديث:

- سوف أبقى معكم اليوم..!

فنظرت إليها المشرفة:

- نحن نحتاج إلى مشرفين مقيمين معنا، فهل توافقين أن تعملي هنا؟

- بالتأكيد..!

احتضنوها ودفؤهم انتشر في سائر روحها وقلبها، ما عدا هذا الركن الفارغ الذي به أربع مقاعد، زوجها وابنتها وزوجها وحفيدها؛ فعلى الرغم من أن حجم القلب صغير فإن به مقاعد كثيرة، إن رحل أصحابها تظل فارغة وباردة إلى أن يأتوا، وإن لم يأتوا تظل هكذا طوال العمر..!

جذبها أحد الأطفال من يديها، ودخل بها إلى حجرة الموسيقى، وبدأ يعزف على البيانو، فجلست بجواره وعزفت معه، فقال لها:

- هل تعزفين على البيانو..؟!

- البيانو أنيسي..! تتبدل به كل الأشياء من حولي، فأشعر بأن الأرض غير الأرض، وروحي ترى كل أحبائي الذين رحلوا عن حياتي..!

- هل أستطيع أن أرى أمي إذن..؟!

- إذا عزفت بروحك لا بأناملك، فسوف تشعر بروحها وتراها..!

لمست أنامله أنامل البيانو، وأغمض عينيه، فشعر بأنه يعتلي السحاب أو يطير في السماء أو ربما يكون في آخر الدنيا، والدموع تتحرر من عينيه، ويرفع وجهه لأعلى كأنما يحاول أن يرى أمه، وما إن انتهت المقطوعة الموسيقية، بكى وضحك في آن واحد، واحتضن السيدة:

- لقد رأيت أمي، أحبك كثيرًا..!

- وأنا شعرت في حضنك بحضنه..!

- من؟

- يوسف حفيدي..!

- أعتقد إنكِ يتيمة مثلنا..!

- اليتم يا بني ليس فقط بالموت، ولكنه أيضًا حينما يدفنونك حيًّا، ويصبح بيتك قبرًا لا يزورونه إلا في المناسبات..!

أغلقوا البيانو، ونامت بجوارهم في فراشهم، ولأول مرة تغط في نوم عميق قبل طلوع الفجر..!

مربی وزبد

دق جرس الباب، دقات متلاحقة، ورغم أنه يشبه سارينة عربة الإسعاف، ومع ذلك لم تنهض من سريرها، حتى إنها لم تقلق وكأنها جثة هامدة، وسمعت صدى صوت وكأنه كابوس وهو يصيح:

- سأقوم بقطع الكهرباء، لقد مر أربعة أشهر ولم تدفعوا الفاتورة..!

وكأنها لم تسمع شيئًا، ووضعت الوسادة فوق رأسها، وبالفعل قطع الكهرباء، والتكييف توقف، فكادت تختنق، فلولا التكيف لم يكن النوم يعرف طريق عينيها، فألقت بعروستها التي كانت تحتضنها على الأرض، وذهبت إلى الحمام لكي تغتسل، ولكنها وجدت الماء مقطوعًا أيضًا، فنظرت إلى المرآة وهي غاضبة، فهي من فعلت بنفسها هذا، هي من جعلت منها صنمًا، فقط ينفذ الأوامر..!

حتى إنها لا ترى نفسها حيوانًا، فالحيوان لا تستطيع أن تجبره أن يفعل شيئًا لا يريده، تمعنت في وجهها وبقايا الكحل أسفل عينيها، وبقايا أحمر الشفاه على شفتيها من ليلة البارحة، فهي قد وضعتهما رغمًا عنها.

وكلما نظرت واجهتها المرآة بالحقيقة التي تحاول أن تهرب منها، إنها تغير شكلها عن أيام الجامعة، فلقد كانت أجمل بنت في دفعتها، ليس فقط شكلًا وإنما أيضًا روحًا، وعندما كانت تغيب عن أصدقائها كانوا يفتقدونها كثيرًا، أما الآن فلقد فقدت كل شيء; نفسها وجمالها وأصدقاؤها وحريتها..!

فتحت باب الحمام وأغلقته بقوة كاد الزجاج ينكسر، ثم دخلت المطبخ لكي تعد الفطور; فهي تحب تفطر الخبز المحمص، والمربى، وعليها قليل من الزبد، مع كوب من القهوة، فكلما تناولتها سمعت صوت زميلها، وهو يمثل في إحدى المسرحيات، فعندما كانا يتأخران في ورش العمل المسرحي، كانا يذهبان إلى المطعم ويحضر لها هذه الوجبة، ويأكلان معًا، والمربى تتساقط على ملابسهما، وتسمع أيضًا صوت الكمنجات، فبعد أن ينتهيا من المسرحية، يأخذان من عازفي الموسيقى «الكمنجات» ويدخلان في سباق مع بعض، ورغم عدم اتقانهما فإن فرحتهما وشعورهما بالموسيقى كان يجعلهما يبدعان..!

فهذه الوجبة هي نافذتها التي تتنفس منها لكي لا تموت في هذا التابوت..!
فتحت الثلاجة فلم تجد مربى ولا زبدًا، فعلى ما يبدو أن زوجها قد تناولهما قبل أن يذهب إلى العمل، حتى الوجبة التي تحبها حرمها منها، ففكرت أن تتصل بـ«البقال»، ولكنها تذكرت أنها في الحبس الانفرادي، فلو فكرت أن تفعل هذا فسوف يكون مصيرها الضرب واللعن، فهي محرم عليها أن تحاسب محصلي فواتير الكهرباء أو الماء أو تطلب شيئًا من البقال، فالأفضل لها أن تموت ولا أن تكلم رجلًا..!
ولكن كل ما يحدث الآن هو خطأها، ففي أيام الخطوبة كانت تتركه يفتش في جوالها لكي يعرف من اتصل بها اليوم..! وكان يدخل على حساباتها بمواقع التواصل الاجتماعي، ويرى محادثاتها مع أصدقائها، وعندما كان يفعل هذا كانت الفرحة لا تسع قلبها، فكانت تراه رجلًا، ولكن بعد أن تزوجت اصطدم قلبها بصخرة الواقع، عرفت أن هذه الأفعال لا تمت للرجولة بصلة، إنما هي أفعال قبيحة كلها من باب حب الامتلاك والسيطرة والتدخل في خصوصيتها، فالرجولة توليفة من الحب والتفاهم والاحترام والاحتواء، وأن يكون هناك ثقة متبادلة، وأن يعطيها مساحة من الحرية تحت رعايته دون تسلط، فهي لا تذهب إلى أي مكان بدونه، ولا تستقبل أحدًا من أصدقائها، ولا تذهب إلى أمها بمفردها، فلا تعرف أن تنام في حضنها أو تفضفض لها.
نظرت في الثلاجة مرة أخرى لعلها تجد لبن لكي تعد كوبًا من القهوة، فطارت من الفرحة عندما وجدت اللبن، وأرادت أن تشعل البوتاجاز فلم يشتعل..!
فهزت «أسطوانة البوتاجاز» فوجدتها فارغة، فألقت بعلبة اللبن في عرض الحائط، وارتمت بجسدها على الكنبة، وغرقت في الدموع، إلى أن سمعت أغنية أنغام تخترق باب زنزانتها لتفتحه على مصراعيه، فنهضت ونزعت نعلها الأحمر لتكون حافية القدمين، فهي تريد أن تلمس الأرض وهي ترقص، أن تشعر بهواء فستانها الأحمر على ساقيها وهو يلف معها، أن تستنشق عبير شعرها وهو يداعب وجهها، أن تشعر بوجود يديها في جسدها وهي

تلوح بهما، أن تسمع صوتها وهي تصرخ وتضحك وتغني دون أن تجد أحدًا يرمقها لكي يعنفها..!

نسيت للحظة أين هي..؟! وأنه بعد دقائق سيفتح السجان باب زنزانتها، لا لكي يحررها، وإنما لكي يتأكد أن الأساور الحديدية في يديها مغلقة بإحكام، وإنها لن تفر إلى أي مكان..!

قطعة دومينو

وقفت أمام المرآة التي كانت تستضيف ضوء الشمس النافذ من شباك حجرتها، اقتربت من المرآة، وفتحت عينيها عن آخرهما، وتحسست بيديها الناعمتين وجهها ناصع البياض، وكأنها تنقب بداخلها عن شيء أو لعلها تتأكد من شيء، جذبت وجنتيها بقوة، ودوامات الحزن تجتاح جسدها النحيل وتمزق قلبها، وتعصف بروحها، وتكاد تبتلعها.

توقفت عن جذب وجنتيها، ولكنها ما زالت تقف أمام مرآتها، تتفقد بعينيها البنيتين وجهها ويديها، ووضعت كفيها على قلبها الصغير لكي تشعر بنبضاته، ثم ضربت قلبها ضربات متتالية، تريد أن تشق صدرها لكي تنزعه من بين ضلوعها لتتفحصه هو أيضًا، تريد أن تعرف هل قلب المرأة مكان للفرح فقط من أجل أن يسعد قلب الرجل..! وإنه من المحرمات بل من الكبائر أن يحزن قلبها لكي لا يضيق قلب الرجل..!

وكيف يحل للرجل أن يحزن قلبه ويضجر أم هي فلا..؟! فهل قلب المرأة ينطبق عليه المثل الشائع «في الفرح مدعوين وفي الحزن منسيين».

اجتاحها مزيد من الأسئلة التي عصفت بجسدها، فارتمت على السرير، ووجهت وجهها ناحية النافذة، تنظر إلى السماء النقية، وعيناها تتابعان حركة السحاب، فالسماء والسحاب جعلاها تهدأ قليلًا، ولكنهما لم ينجحا في قضم أظافر الحزن التي تنبش في قلبها، فلأحزانها «سجان» دوره هو عقابها إذ حزنت فيتهمها بـالكئيبة، ولا يكلف نفسه أن يسألها ماذا بها..؟! والعقاب مضاعف إذا تحدثت عما يصيب قلبها من تقلصات تكاد تفتك بها، فالعقاب هو التجهم في وجهها، وسجنها بداخل زنزانة منفردة بداخل قلبها، لكي يجبرها أن تدفن أحزانها، وأن تردم فوقها، لكي تبتسم في وجهه مرة أخرى.

نوة الأحزان جعلت عينيها تفيضان بالدموع، ووجنتاها وشفتاها التهبت من حرارة جسدها المرتفعة، فجرت مرة أخرى إلى المرآة، وبدأت تجذب وجنتيها بقوة أكثر لدرجة أن عينيها كادتا تنسلخان من مكانهما، لكي تتأكد مما كانت تبحث عنه بداخلها..!

كانت تريد أن تتأكد أنها ليست «قطعة دومينو»، يحركها الرجل كيفما يشاء وقتما يشاء، فهي ليست مجموعة من الأرقام يحسبها الرجل ليحركها لتتوافق مع عقله، وإنما هي إنسانة تمتلك قلب ينبض ويفرح ويحزن مثله تمامًا، وكل الذي تحتاجه منه أن يفهم دقات قلبها في هدوئه وصرخاته.

كم تمنت..! أن يسمع لها، ولا يقتل حديثها كلما أتت لتحدثه عن حزنها، أن يربَّت على كتفها، وأن يدفنها بين أحضانه، فينسى قلبها أنه يومًا سكنه الأحزان..!

سمعت صيحات زوجها الصادرة من الصالة، وهو يلعب «إحدى ألعاب الفيديو»، حاولت أن تتظاهر أنها لم تسمع صوته، فهو تاركها بمفردها في سجنها ولم يأتِ ليحررها إلى الآن، هو سعيد بهذا لأنها بعيدة عنه..!

أغلقت باب حجرتها ليتلقى هو صيحاته وعويله بدلًا منها، ولكنها ما زالت تسمع بصيصًا من هذا الصياح، فأحضرت مشغل الموسيقى، وأدارت معزوفة موسيقية «قصة حب» كم هي تعشقها..! فكانا يسمعانها معًا..! ولكن أصبحت هذه المعزوفة مجرد حبل وهن، يسحبها لذكريات جميلة من الماضي، تمنت في هذه اللحظة لو تلملم قلبها بما فيه، وروحها الرقيقة، وعقلها العنيد، وتسافر بعيدًا إلى عالم ليس به أصوات، لا تسمع فيه غير المعزوفة الموسيقية ((قصة حب))..!

خارج الكادر

دخل بخطوات هادئة يحمل حقيبته السوداء المتهالكة، والأوراق تكاد تسقط من يديه من كثرتها، جلس إلى إحدى الطاولات يرتب أوراقه، فتتطايرت إحدى الأوراق، وسقطت على طاولتي، وأنا أحتسي قهوتي، فقام لكي يعتذر لي عن هذا الخطأ الغير المقصود، أعطيته ورقته، ورحل في هدوء، وجلس إلى طاولته مرة أخرى، وأخرج بعض الأوراق والأقلام وكتابًا باللغة الإنجليزية ، فمن الواضح أنه مدرس، فالمدرسون لهم هيئة تكسبهم هذه الشرعية، فهو في أواخر الثلاثينيات، وشعره كثيف بلون الليل وبه خصلات بيضاء، كأنها نجوم تزين شعره الناعم، ملامحه تحمل نقاء الريف، وملابسه بسيطة، ووقاره يكسبه الكثير من الهيبة، ظللت أراقبه وأخذت قرارًا أن أجلس معه، وأحكي له عما يؤرقني، فأنا أعرفه منذ أن كنت صغيرة.

أتعلم أن عالمي لم يتغير كثيرًا منذ أن تركتني، أصوات متعالية، صراخ، بكاء، خذلان، خوف، دقات قلبي أشبه بقرع الطبول، أنفاس حبيسة صدري، علقم في حلقي، حاولت مرارًا أن أتناول ((سكر نبات)) لكي تذهب هذه المرارة، ولكن جميع محاولاتي باءت بالفشل، فالمرارة «مرارة روح».

فالمرارة لها منبع ومصب ينتهي في قلبي، فمنبعها يبدأ من أشخاص أقحمتهم في حياتي من دون داعٍ، أقحمتهم من باب أن الإنسان يجد سعادته مع الناس، من باب أني توهمت أنهم يحبونني لأنهم كانوا يحكون لي أسرارهم، تخيلت أنه من يحكي لي أشياء من حياته، فإنه بذلك نصبح أصدقاء، فالأسرار لا تلقى عبثًا بين أيادي الناس، بل يجب أن تضع في قلب إنسان أمين.

وجدت أن هذه القاعدة ليس بالضرورة أن تنطبق أحكامها وشروطها على كل البشر، فلكل قاعدة استثناء، فهناك من يحكي لي من باب الفراغ، فيثرثرون عن مشاكلهم، ومخاوفهم، والمطلوب مني أن أكون إنسانة مطيعة وكلي آذان مصغية، أسمع وأتقدم بالنصيحة فقط ليس إلا، يمكن أن تعتبرني مثل «الطبيب النفسي» ينقصني فقط الموسيقى الهادئة لتهيئة جو الجلسة، وأكون مثله تمامًا، ولكن على الأقل هذه هي مهنته، أما أنا فلا، فأنا أتألم لمثل

هذا الشعور، أن أكون فقط ملجأ للمحبين والمجروحين وعاطلي الحياة..!
وعندما تملكتني الأحزان، لم أجد من كنت أسمعهم بالساعات وسلبوا مني عمري، ومثل هؤلاء بارعون في الحجج والأعذار والكذب، فأنا لم أكن يومًا صديقتهم بل إنسانة طيبة وجدوا في قلبها مكانًا لهم، وسوف يفعلون ذلك مع أي إنسان يملك مكانًا لهم في قلبه، هذا هو فقط شرطهم للبوح ليس إلا..!
أما أنا فلم أجد لي مكانًا في قلبهم، وشعرت بالانهيار، كأن أحدًا أمسكني وألقى بي من أعلى «ناطحة سحاب».
أنا أرى دموعًا في عينيك، وأنا لا أحب أن تشفق على، أريدك أن تعلم أني قوية، ولكن دعني أولًا أطلب لك فنجانًا من القهوة، فمع القهوة يحلو أي شيء في الدنيا، فأنت أول إنسان علمني كيف أعانق القهوة، وكيف أجعلها تعانقني، لكي أستطيع أن أتنفس قليلًا، وأنا في أصعب لحظات حياتي..!
دعني أكمل لك..
في هذه اللحظة التي ارتطمت فيها بالأرض..
فارقت فيها الحياة..!
ولكن لم أمت..!
نعم لم أمت..!
فأنا لم أفارق الحياة..!
بل فارقت الحياة التي كادت تودي بحياتي..!
نهضت ودموعي لم تفارقني، وجلست هناك بعيدًا، تستطيع أن تقول إني تحولت من دور بطلة في حياتي إلى دور مشاهد لها.
كم كنت أحتاج إلى هذه اللحظة الذي أتحول فيها من إنسانة داخل الكادر إلى إنسانة خارج الكادر..!
ها قد جاءت القهوة لنستكمل حديثنا معها..
ارتشف قليلًا من القهوة وأشعل معها سيجارة، هكذا كنت تحب أن تفعل

دومًا حينما كنا نتحدث معًا.
سوف أكمل لك..
وقفت خارج الكادر أشاهد حياتي، وجدتها سلبت مني وأعطيت لي حياة إنسانة أخرى، بها أشخاص كثيرون لا يمطون لي بصلة، وأفكار سيئة يخيل لي أنها سوف تحدث، فمن المضحك أننا نحن البشر عندما نرتدي ملابس معينة في امتحان، ولا نعرف أن نحل الأسئلة نقول: لن نرتدي هذه الملابس مرة أخرى فهي نذير شؤم، وما علاقة الملابس بذلك..؟! فالسبب في فشلنا هو أننا لم نذاكر جيدًا، ولكنه مجرد وهم يا معلمي، وهم..!
وفي الحقيقة وجدت أن «الوهم» يشكل جزءًا كبيرًا من حياتي، لا أعرف ما السبب؟ هل لكي أهرب من الواقع..؟!
لا أعرف
ولكن الذي أعرفه أن الوهم هو السبب الرئيسي لما آلت إليه حياتي، فلقد توهمت بوجود أصدقاء في حياتي، وتوهمت حبهم، وتوهمت أنهم قديسون، وألسنتهم لا تعرف طريقًا للألفاظ النابية..!
تضحك، هو فعلًا شيء يضحك..!
ويخيل لهؤلاء الأشخاص أنهم عندما يقررون العودة إلينا مرة أخرى، سوف يجدونا في انتظارهم، لا يعرفون أن الطيبون ثرواتهم قلوبهم، وقلوبهم كما تحب تستطيع أن تكره، تكره عندما تجرح بمشرط من دون رحمة أو شفقة..!
ورأيت أيضًا أن انغماسي في حياة ليست بحياتي، جعلتني أقصر في ديني، والضيق اشتد بي، كلما تذكرت هذا النور الذي كان يغمر قلبي، والبراح الذي كنت أشعر به كالمسك يفوح من بهو صدري.
اقتربت أكثر من حياتي، لأشاهد «الخوف» هذا اللص الذي يسرق مني أحلامي، وبسببه لم أعش لحظات في حياتي كما هي، بل عشت الفرحة كأنها حزن، وعشت الفسحة كأنها سجن، وعشت الحلاوة كأنها مرارة، فالخوف لا يحتاج سوى لحظة، وأضف إليها بعض الأفكار السيئة مع دقات متسارعة

من قلبك، ورجفة يصدرها جسدك، وهكذا أستطيع أن أقول لك: إن الخوف حضر.

أرى في عينيك تساؤلًا..

تريد أن تعرف كيف بعد كل هذا أصبحت ابتسمتي وعيناي مشرقين..؟!

أقول لك بكل ثقة إني تحررت

تحررت عندما تعلمت..!

وأهم شيء تعلمته «القبول»، أن تتقبل فكرة أن الحياة عبارة عن طيبين وأشرار، وكما نقابل الناس السيئين الذين يكسرون قلوبنا، بالتأكيد سنقابل من يحبنا ويخاف علينا، ولكي يتحقق ذلك يجب ألا نسمح لمثل هؤلاء الخارجين عن الفطرة الإنسانية، أن يسلبوننا قلوبنا الطيبة ويجندوننا لصالحهم..!

وأنا تقبلت، أن هناك من يقدرني وهناك من لا يقدرني، هناك من يحبني ويشتاق إلى، وهناك من يكرهني ويكره وجودي، وهناك من يبحث عني، وهناك من لا أعني له شيئًا مطلقًا..!

الخطوة المهمة جدًّا بعد أن تتقبل

«الأبواب»

أخطر شيء أن لا توصد هذه الأبواب، والأخطر أنك تتركها مواربة

«وكأنك يا أبو زيد ما غزيت»

تدخل لك كل متاعبك مرة أخرى وبشكل أقوى، فأنت مشتاق لهم ولضحكاتهم وهمساتهم ومزاحهم معك،

فيفتحون أبوابك بقوة، ويصعب عليك هذه المرة أن تغلقها مرة أخرى، لأنك بكل بساطة استسلمت لهم..!

ولهذا أغلقت هذه الأبواب، ووضعت عليها الأقفال تأهبًا لأي اقتحام، فالأبواب التي أغلقها في حياتي لن أعاود فتحها مرة أخرى، مهما حدث ومهما حدثني قلبي.

وهناك أبواب في حياتي فتحتها على مصراعيها

أتعلم لمن..؟!
لمن يحبونني..!
ويشتاقون إلى..!
ويبحثون عني دومًا..!
لمن يدعون لي في صلواتهم..!
لا تنظر إلى هكذا والاستغراب يجعلك تعبث بعلبة السجائر، وتتساءل كيف سوف أعرف هذا..؟! وأنا حديثي يبين لك أني أخدع في الناس..؟!
فأنا تعلمت أن أجعل المواقف هي من تقربني من الناس أو تبعدهم عني، فالمواقف هي من تبين لي مدى مصداقيتهم أو كذبهم..!
أكمل أم تعبت من حديثي؟
ما دمت ابتسمت، فهذا دليل على استمتاعك بحديثي..!
وتعلمت أن « السعادة كالبناء»
يجب أن تكون أسسها في قلبي، بمعنى أنه يجب أن تكون أنت «سيد سعادتك»، تتعلم كيف تخلق السعادة بداخلك، ولا تعتمد في سعادتك على البشر، فلا تنظر فلانًا يحنو عليك، ويعرض عليك أن تخرج معه، ليس معنى حديثي ألا تفعل ذلك، بل يجب أن يكون هؤلاء البشر في طوابق بنائك فقط، تشاركهم الفرحة ولكن لا تنتظرها منهم..!
وأصل السعادة والراحة هو «قربك من الله» سبحانه وتعالى، عندما تقترب منه ترى كل شيء جميلًا، حتى وأنت تتألم أو متعسر أو مريض، تشعر بأن لك ربًا كريمًا لن يتركك، هو معك دائمًا، وهذا يكفي أنك تشعر بسعادة تغمرك في كل لحظة من لحظات حياتك..!
تحررت معلمي، عندما تعلمت وتقبلت أن هذه هي الحياة خير وشر، وعندما أغلقت أبوابًا وفتحت أبوابًا، وعندما بنيت سعادتي في قلبي، وعندما اقتربت من الله سبحانه وتعالى.
دروسك لنا لم تكن بنفس الصعوبة التي تعلمها لنا الحياة، فالدروس التي

نذاكرها من الكتب، تأتينا جاهزة لكي نتعلمها، وعندما لا نفهم تعيد الشرح مرة أخرى، ولكن مدرسة الحياة تكمن صعوبتها في أنها ليس لها كتاب، فنحن من نكتب هذا الكتاب كلما تعلمنا شيئًا..!

لا تنفث هذا الدخان في وجهي، أكاد أختنق..!

ماذا أفعل معك..؟!

لا مفر إلا أن أكمل حديثي، وأتقبل هذا الدخان الذي هو جزء منك، تعلم أشعر بأن دخان السجائر مع الوقت يصبغ بصاحبه، فتكون له رائحته الخاصة به، وأنا استنشق رائحة مميزة تنبعث منك، فأنت دائمًا مميز يا معلمي العزيز، وأنا في الصف الثالث الإعدادي كان هناك مدرسو((لغة إنجليزية)) ممتازين، إلا أنني كنت أشعر بأن اللغة الإنجليزية لها طابع خاص معك، خطك المائل الذي يشبه كثيرًا بمن يكتب بالفرنسية، وأسلوب شرحك الهادئ، كل هذا يميزك..!

أتخيل أن شكلك تغير كثيرًا الآن، أصبحت خفيف الشعر، وأصبح لك كرش; الطابع الخاص بالرجال المصريين عندما يتزوجون.

لا أعرف كيف حالك الآن..؟! ولا أين تقطن؟

ولكني تمنيت أن أراك في هذا المقهى، والدخان فيه أشبه بالضباب، لدرجة أنه يحجب الرؤية، ولكن إذا كنت موجودًا الآن سوف أستطيع أن أراك جيدًا، فاشتياقي لك معلمي سوف يزيح ستائر الدخان لكي أراك..

تعلم لماذا اخترتك أنت بالتحديد لكي أحكي لك..؟!

لأنك أنت فقط من كنت تسمع لي حينما كنت صغيرة في المدرسة، عندما تراني حزينة، والدموع تنهمر مني، تظل تراقبني طوال الحصة، وبمجرد أن يدق الجرس معلنًا عن انتهاء الدرس، كنت تناديني:

- تعالي، يا طماطم..!

فتقف معي وتسمعني بروحك، وأرى ملامح الحزن احتلت وجهك بسبب حديثي، وبعد أن أنتهي تنصحني وتمازحني لكي أضحك، وكنت في لحظة

أنسى همومي.
دعني أعترف لك، عندما جئت إلى هنا اليوم، لم أفكر أن أقابلك في خيالي، ولكن هذا المشهد هو الذي جعلني أتذكرك بسرعة رهيبة، فهذا الرجل يشبهك كثيرًا في ملامحك، وملابسك البسيطة، وحقيبتك السوداء الكبيرة، والأوراق التي لا تفارقه..!
أتعلم يا معلمي، أصعب شيء في الاشتياق..! أننا نروي اشتياقنا لأشخاص في حياتنا عن طريق أشخاص لا نعرفهم، ويربطنا بهؤلاء الغرباء أنهم يشبهون أشخاصًا نحبهم، ولا نعرف كيف نصل إليهم ولا نعرف أين نجدهم..؟!
وهذا المدرس نجح أن يشعل النار في حطب اشتياقي، وازداد اشتعاله عندما رأيت هؤلاء الطلبة يدخلون المقهى، وطلبوا جميعهم «المثلجات» من الواضح أنه يكافئهم بسبب نجاحهم في الامتحان، أتتذكر أنك كنت تفعل معنا هكذا عندما ننجح، تكافئنا بالحلوى..!
كم تمنيت لو أراك الآن يا معلمي..!
حتمًا سأقابلك يومًا ما..!
فالأرواح الطيبة دائمًا على ميعاد..!
ها هم يصيحون بسبب قدوم المثلجات..!
وها أنا روحي تصيح لكي تشاركهم فرحتهم..!
وأنظر إليهم وابتسم..!
لعلهم يرون ابتسمتي ويدعونني للجلوس معهم..!
ولكنهم لم يروني، فسعادتهم بمدرسهم تكفيهم، فهل في وجود القمر المنير تلتفت إلى النجوم..!
أخرجت نوتتي الصغيرة من حقيبتي الحمراء، و القلم الرصاص، وبدأت أرسم ملامح معلمي، ولكن ليس وأنا خارج الكادر، بل وأنا بداخل الكادر.

نهاية الكتاب

هل شعرت بالدفء وأنت تشرب القهوة وتأكل قطعة حلوى..؟!
في انتظاركم على نفس الرصيف
عبر
الفيس بوك
https://www.facebook.com/nelly.aly.5

مدونة عطر الأحباب
/http://3etr-ela7bab.blogspot.com

الجود ريدز
https://www.goodreads.com/user/show/10396314

تمبلر
قلم وقهوة
/http://nellyaly.tumblr.com

سوند كلاود
https://soundcloud.com/nelly-aly/sets

إنستغرام

http://instagram.com/nellyaly83

تويتر

https://twitter.com/Nellyaly83Ne